كتاب في جريدة

أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996

عدد 76 الأربعاء 1 كانون الأول/ديسمبر 2004

ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي

مذكرات أميرة عربية

سالمة بنت سعيد بن سلطان

رسوم ديما حجّار





الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية



إتفاقية التعاون بين منظمة اليونسكو ومؤسسة محمد بن عيسى الجابر



وقّع في يوم الجمعة 19 سبتمبر 2003 في مقرّ اليونسكو بباريس المدير العام لليونسكو المستر كويشيرو ماتسورا وسعادة الشيخ محمد بن عيسى الجابر رئيس مجلس إدارة مجموعة إم بي أي العالمية MBI INTERNATIONAL ومؤسّس إم بي أي MBI FOUNDATION ومعهد لندن للشرق الأوسط LONDON MIDDLE EAST INSTITUTE، إتفاقية تعاون مشتركة بين اليونسكو و MBI FOUNDATION وذلك في مجالات التعليم والثقافة.

تركّز الإتفاقية أوّل إهتماماتها على تطوير وتحديث النظام التعليمي في الشرق الأوسط وما يمكن القيام به لترقية وتشجيع ثقافة السلام والديمقراطية، بجانب مشروع إدخال الحرف العربي في الإنترنت ومشروع «كتاب في جريدة» وقد بدأ تنفيذه بالفعل.

المؤلفات المقرّة 2004 / شباط – 2005 / كانون الثاني*

التاريخ (أول أربعاء من كل شهر)	إسم الكتاب	الكاتب	الرسام
11 شباط / فبراير 2004	الضوء الأزرق	حسين البرغوثي، تقديم: غسان زقطان	حسن الحوراني
3 أذار / مارس 2004	مختارات شعرية، عبدالله البردوني	إعداد وتقديم: عبد العزيز المقالح	سبهان آدم
7 نيسان / أبريل 2004	ليلى المريضة في العراق	زكي مبارك، إعداد وتقديم: محمد مظلوم	سعد يكن
5 أيّار / مايو 2004	مختارات شعرية، عمر أبو ريشة	إعداد وتقديم: حسين راجي	فاتح المدرّس
2 حزيران / يونيو 2004	تجديد الفكر العربي، نصوص مختارة	زكي نجيب محمود، إعداد تقديم: محمد مظلوم	سلوى زيدان
7 تموز / يوليو 2004	الأمير الصغير، أنطوان سانت أكزوبري	ترجمة: يوسف غصوب	نديم الكوفي
4 آب / أغسطس 2004	الوتد	خيري شلبي، تقديم: محمد مظلوم	كريم سيفو
1 أيلول / سبتمبر 2004	مختارات شعرية، سنية صالح	إعداد وتقديم: ممدوح عدوان	نذير اسماعيل
6 تشرين الأول / أكتوبر 2004	ديوان النثر العربي، نصوص مختارة	إعداد وتقديم: أدونيس	أدونيس
3 تشرين الثاني / نوڤمبر 2004	حارث المياه	هدى بركات، تقديم: فيصل دراج	تانباك
1 كانون الأول / ديسمبر 2004	مذكرات أميرة عربية	سلمى بن سعيد بن سلطان	ديما حجار
	امرؤ القيس في باريس	عبد الكريم برشيد	فوزي الدليمي

* المؤلفات المؤشرة باللون الرمادي هي التي صدرت إلى الآن.

سلمى بنت سعيد بن سلطان

ولدت سالمة بنت سعيد بن سلطان، في زنجبار عام ٤٤٨١، لأم تنحدر من أصول شركسية. كان والدها سعيد بن سلطان، حاكماً لمسقط وزنجبار، التي كانت تعرف في كتب التراث العربي ببلاد الزنج أو بر الزنج، في جناس واضح لاسمها الحالي، وفي فترة الوجود العربي العماني لما يسمى أيضاً بأرض القرنفل، حيث يصل عدد أشجار القرنفل فيها إلى بضعة ملايين.

في بداية العشرينات من عمرها أحبت الأميرة تاجراً ألمانياً، وهربت معه لتعيش في أوروبا، فغيرت إسمها إلى إميلي روث وكذلك معتقدها الديني.

أصدرت مذكراتها باللغة الألمانية في العام ٦٨٨١ وترجمت إلى الإنكليزية والفرنسية، لكن الترجمة العربية جاءت متأخرة عن سابقتيها، وقام بترجمتها عبد المجيد القيسي.

توفيت في العام ٢٢٩١، عن عمر يقارب الثمانين عاماً.

يُعَدّ هذا الكتاب الأول من نوعه لكاتبة عربية وإن حُرِّر بلغة أخرى، فهو يتحدث بالدرجة الأساس عن ثقافة (عربية إسلامية سواحلية متداخلة) في الجزيرة التي مثلت جانباً من الوجود العربي في شرق أفريقيا، وهو يجمع بين أصالة التجربة الشرقية، وصياغتها بفن أدبي أوروبي: (المذكرات)

ربما مثلت حياة سالمة بنت سعيد، وفرارها بالذات، نوعاً من الأسطورة، الممزوجة بالخيال الشعبي المتوارث عادة، في المأثورات الشفاهية.

فمن أسطورة أوروبا الفينيقية وهي تهرب على كتف الإله الإغريقي زوس متنكراً بهيئة ثور على ساحل الشام، ليطير بها عبر المتوسط، وينشئ قارة أخرى، إلى حكاية (المعيدية الحسناء) في بلاد النهرين التي هربت مع الإنجليزي الغامض، وهي حكاية تتكرر في أماكن أخرى، تتحرك دائرة الأساطير لتشمل قصة فرار الأميرة العربية مع التاجر الألماني (زوس الجديد) عبر البحار لتنجب منه جيلاً آخر.

لا شك أن الأسطورة يجري تكييفها هنا بمقتضى الوقائع، ورغم أن الكتاب سرد آخر، غير ما يحمله سحر الأسطورة نفسها، لكن المؤكد أن هالة الأساطير لا يمكن عزلها نهائياً عن ذهن القارئ وهو يتابع فصول هذه المذكرات، فالحضارة المنقولة على كتف زوس نحو جزيرة في البحر، والجمال المسروق من بين الجواميس، إلى ما وراء البحار، ستبدو كبوصلة أخرى في الهروب من زنجبار إلى أوربا.

تتركز الفصول المختارة هنا على ثلاث مراحل مفصلية من حياة الأميرة المغتربة: أجواء التنشئة الاجتماعية وعالم الطفولة والأسرة، ثم مرحلة التنافس السلطاني وتدبير المؤامرات التي وجدت نفسها معنية بها أو مدفوعة لها، ثم مرحلة الهروب من زنجبار والعيش في ألمانيا والرحلة إلى لندن، ثم مرحلة العودة إلى زنجبار وهي عودة لا تمثل سوى نوع من الوقوف على أطلال حياة وحطام ذكريات.

الملاحظ أن مجمل فصول هذه المذكرات مكتوبة بالأساس إلى القارئ الأوروبي المأخوذ بمخيلة سحرية عن الشرق وتلك الصورة النمطية بزخرفتها الزائدة والمبالغ فيها، حول السلطان العربي والأميرات في القصر، وعالم الحريم، بيد أن الكاتبة تجهد لتغيير تلك الصورة النمطية وزحزحتها عن إطارها المسبق.

لهذا فإن ثمة في الكتاب الأصل، فصولاً تبدو نافلة، بالنسبة للقارئ العربي خاصة في ما يتعلق بالطقوس المحلية والعادات والتقاليد الفولكلورية والشعائر الدينية.

ليست المذكرات هنا نوعاً من السيرة الذاتية وإن انطوت على مفاصل منها، لكنها تتجنب الغوص عميقاً في تفسير بعض ما جرى ونقده جذرياً، بقدر ما تعمد إلى تقديم وصف نوعي للأحداث.

ولأن الكاتبة قد كتبت هذه المذكرات ليقرأها أبناؤها، كما تقول، كي يتعرفوا على الجانب الآخر المجهول من حياتها وشبابها تحديداً، فان الغور في ما هو شخصي وجدلي إشكالي سيبدو منحسراً إلى حد ما عن مذكرات الأميرة العربية (الأم)، ليشير إلى انحسار طبيعي للنبرة الاعترافية، وهنا لا ينبغي أن ننسى إن المذكرات كتبت في القرن التاسع عشر، عندما كانت أوروبا نفسها محافظة حتى في آدابها.

ومع هذا تحاول هذه الفصول الموازنة قدر ما هو متاح بين حياة سالمة وحياة إميلي.

فبينما عاشت في أوربا وقد غيرت اسمها ومعتقدها ولغتها ونمط حياتها، فإنها لم تستطع أن تنبتّ نهائياً عن تاريخها الشخصي، رغم ما تمثله هذه التحولات الجذرية في حياتها من اقتلاع مركب أو منفى متعدد الطبقات عاشته سالمة تحت ظلال اسم إميلي، او إميلي تحت وطأة اسم سالمة.

وما بين حياة الحريم في الشرق، وعالم المرأة في الغرب، تحتفظ الكاتبة بصفتها الأميرية، البرنسيس إميلي روث.

بيد أن زنجبار نفسها تجسد جانباً من التحول والضياع، فهي ذلك الزمن المتفصد حتى بدا كأنه البعيد المفتقد، أندلس أخرى أو جزر بعيدة في الذاكرة.

فقد كان فرار الأميرة من زنجبار معادلاً لبداية معضلة ستؤدي لاحقاً، إلى انفصال الجزيرة عن عمان، وهنا أهمية إضافية، ليس لفكرة الفرار فحسب بل كذلك، لهذه المذكرات التي تحاول الكاتبة فيها، أن تكون شاهداً وليست موضوعاً أو مشهداً، وهي بهذا لا تنزع إلى تحريك الحجاب الأسطوري عن شخصيتها بقدر ما تميط اللثام عن وقائع وشخصيات ومواقف.

إنها مذكرات إمارة وسلطان وأميرة أيضاً، تختلط فيها المعلومة التاريخية بجوانب الحياة اليومية، بشيء مما هو شخصي، وإن كان مضمراً أو معمماً.

محمد مظلوم



ديما حجّار

من مواليد بيروت عام ١٩٦٨. تخرجت من كلية الفنون في الجامعة اللبنانية الاميركية سنة ١٩٩٥. في جعبتها العديد من المعارض المحلية والدولية (فرنسا، إنكلترا، السويد، كندا، السنغال، الكاميرون، الولايات المتحدة). حازت على جوائز عدة أبرزها جائزة مسابقة الألفية من "وينسر ونيوتن" في لندن سنة ٢٠٠٠، وجائزة الفرانكفونية للفنون في متحف الفنون الجميلة في أوتاوا، كندا سنة ٢٠٠١، وجائزة لجنة تحكيم متحف سرسق في بيروت سنة ٢٠٠٣. ترسم بشكل أساسي مواضيع معيوشة كالحنين إلى الطفولة، وحاضر المرأة في صراعها بين التمسّك بتقاليد الماضي وتطلّعاتها نحو المستقبل، بالإضافة إلى هاجس البيئة والحياة ضمن منظور استيعاب التقدم العلمي والتكنولوجي من اجل الإنسان. تذهب بعيدا في التجريب والاختبار بموادها وتقنيّتها، نتيجتها لوحة معاصرة تنتمي إلى زمنها بكل أبعادها وتفاعلاتها.

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلاّل دوغان

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المَقَّر
بيروت، لبنان

*** يصدر بالتعاون مع وزارة الثقافة**

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المطبعة
پول ناسيميان،
پوميغرافور برج حمود بيروت

الإستشارات القانونية
"القوتلي ومشاركوه ـ محامون"

الإستشارات المالية
ميرنا نعمي

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

الصحف الشريكة
الأنباء الخرطوم
الأهرام القاهرة
الأيام رام الله
الأيام المنامة
تشرين دمشق
الثورة صنعاء
الخليج الإمارات
الدستور عمّان
الرأي عمّان
الراية الدوحة
الرياض الرياض
الشعب الجزائر
الشعب نواكشوط
الصباح بغداد
الصباح الرباط
طريق الشعب بغداد
العرب طرابلس الغرب وتونس
مجلة العربي الكويت
القدس العربي لندن
النهار بيروت
النهضة بغداد
الوطن مسقط

خضع ترتيب أسماء
الهيئة الإستشارية
والصحف للتسلسل الألفبائي
حسب الاسم الأول

كتاب في جريدة
العدد الحادي عشر
التسلسل العام: عدد رقم 76
(1 كانون الأول 2004)
ص.ب 1460 ـ بيروت، لبنان
تلفون/فاكس 630 248 (1-961+)
تلفون 219 330 (3-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb

مذكرات أميرة عربية

سلمى بنت سعيد بن سلطان



بيت الموتني

في بيت الموتني أقدم قصور أبي في جزيرة زنجبار خرجت إلى هذه الدنيا، واكتحلت عيناي بنورها لأول مرة. وفيه عشت أسعد أيام طفولتي وأجملها حتى بلغت السابعة من عمري.

ويبعد هذا القصر زهاء الخمسة أميال عن مدينة زنجبار، ويقع في مكان ساحر على شاطئ البحر، ويقوم بناؤه وسط ساحة واسعة الأرجاء بعيدة الأطراف، تنبسط بعدها حدائق غناء تزدهر فيها أجمل الورود رونقاً وأبهاها ألواناً، ثم تحيط بها بساتين كثيفة متشابكة ترتفع فيها سامقة شاهقة أشجار النخيل والمانجو والنارجيل وغيرها من الأشجار الاستوائية الضخمة العود الفارعة الطول.

وقد أخذ هذا القصر اسمه من نهر الموتني، وهو نهر صغير ينبع في مكان غير بعيد عن القصر، ثم يجري نحوه ويخترق بساتينه، ثم ما يلبث أن يتفرع داخلها إلى جداول صغيرة متعددة، تنساب صافية رقراقة إلى مختلف الاتجاهات تحت ظلال الأشجار الكثيفة الشاهقة أو في مروج الحديقة التي طرزتها الورود والأزهار بمختلف الألوان، ثم تنتهي مياهه جميعها لتصب في ذلك الخضمّ الأزرق الهادئ الجميل الذي يفصل زنجبار عن القارة الأفريقية.

وكان القصر مكوناً من العديد من الأجنحة والبنايات التي أضيف بعضها إلى البعض الآخر في أزمنة مختلفة متباعدة فجاءت متباينة في التصميم والطراز وطريقة البناء، مما أفقد المنظر العام للقصر جمال المنظر وحسن الاتساق. وكان مما يشده الوالج الجديد إلى هذا القصر العدد اللامتناهي من المسالك والممرات المتعرجة المتقاطعة التي لا يسلم من التيه في تعرجها وتشابكها إلا من طال سكناه في القصر أو كثر تردده عليه. وقد استحدثت هذه المسالك لتصل بين أجنحة القصر المتباينة المتباعدة.

وكانت مخيلة الطفولة تصور لي وكأن أجنحة القصر وأقسامه ودهاليزه وممراته من الكثرة والتنوع بحيث لا يحصرها عد ولا احصاء. وقد غابت عن ذهني الآن أشكالها ومواقعها إلا واحداً منها، ما زلت أذكره بكل وضوح، وهو جناح الاستحمام.

ويتكون هذا الجناح من أكثر من اثنتي عشرة غرفة تصطف منفردة متجاورة في طرف بعيد من ساحة القصر حتى إننا لبعدها كنا نضطر إلى استعمال المظلات إذا ما رغبنا في التنعم بمتعة الاستحمام في الأيام المطيرة. وكان ما كنا نسميه «الحمام الفارسي» ـ وهو في الحقيقة حمام تركي ـ في معزل عن البقية؛ وكان في الواقع هو الحمام الوحيد من نوعه في زنجبار من حيث الهندسة والبنيان.

وكان هذا المستحَمّ مراح القوم ومغداهم، لا تنقطع عنه وفود الرائحين والغادين منذ الساعة الرابعة صباحاً حتى منتصف الليل، فيقصده كل فرد من سكان القصر. ومنهم من اعتادوا أن يقضوا فيه الساعات الطوال في اللهو والنوم والمرح: فمنه يصرّفون أعمالهم، وفيه يؤدون صلواتهم ويقومون بما يترتب عليهم من واجبات الكتابة أو القراءة، ويتناولون أثناء ذلك كله ما يتيسر من الطعام والشراب.

والداخل إلى إحدى غرف الاستحمام هذه، وكلها ـ عدا الحمام الفارسي ـ على طراز واحد، يجد دكّة على يمينه وثانية على شماله، وقد فرش على كل منهما حصير نظيف دقيق الصنعة يستعمل للجلوس والصلاة. وليس في الغرفة شيء من مظاهر الترف والبذخ كالسجاد والرسوم فهي أشياء مكروه وجودها حيثما يؤدي المسلمون صلاتهم. وصلاة المسلمين تؤدي في أي مكان وفي منتهى البساطة، ولا يشترط إلا أن تكون البقعة التي تؤدى فوقها الصلاة نظيفة طاهرة، كما يفترض أن يضع المصلي على رأسه طرحة نظيفة طاهرة، يفضل أن تكون بيضاء اللون وأن لا تستعمل ـ حرصا على استمرار نظافتها ـ لغير أغراض الصلاة. لكن الواقع أن هذه القاعدة الأخيرة لا يتقيد بحذافيرها إلا غلاة المتدينين.

ومن هذا المكان يدلف المرء من فتحة واطئة صغيرة إلى مكان أوسع يحجبه عن صفاء السماء الزرقاء قبة زجاجية شفافة، ويضم المكان حوضين كبيرين متقابلين سعة الواحد منهما أربع ياردات طولاً وثلاث عرضاً وينزل المستحم درجتين حجريتين قبل أن يصل إلى قعر الحوض حيث يغطي الماء الرجل المتوسط الطول حتى كتفيه.

وكل غرفة من هذه الغرف مستقلة عن الأخرى وتفصل بينها قناطر حجرية مقوسة تتسلقها النباتات والأعشاب. ولكل غرفة روّادها المعيّنون من فئة من فئات القصر، والويل كل الويل لمن يتخطى حدوده: فقد كانت الطبقية مَعْلماً بارزاً في بيت الموتني يلتزم بها الجميع كباراً وصغاراً.

ولم يكن هذا كل ما في جناح الاستحمام، بل كانت هناك أشجار البرتقال ـ وهي بارتفاع أشجار الكرز في ألمانيا ـ تملأ الساحة أمام الجناح بشكل كثيف، وكم كنا نحن الأطفال الصغار نجد بين أغصانها العطوفة الحانية ملجأ لنا وملاذاً يخفينا عن رقابة مربيتنا الصارمة المرعبة!

وكان هذا المكان يعج بالناس والحيوان معاً يتعايشون بمحبة ووئام، لا يعكر أحد الفريقين صفو الفريق الآخر مطلقاً: فكانت هناك الغزلان والنعام والببغوات والطواويس والغرانيق وديوك الهند والروم والبط والوز والغراغر تتهادى في سبيلها بألوانها الزاهية أو ريشها الملون حرة آمنة؛ وكنا جميعاً صغاراً وكباراً نحترم هذه الصداقة بين الفئتين، فكنا نلاعب هذه الحيوانات ونطعمها بمحبة ووداد، وكانت متعتنا نحن الصغار في أن نتحرى عن البيض التي تتركه الطيور ـ وخاصة منه بيض النعام الكبير الحجم ـ ونجمع ما تيسر منه لنقدمه إلى كبير الطهاة ليعمل منه أطباقاً شهية، وليكافئنا جراء جهدنا هذا بأصناف الحلوى والشكولاته.

وكان لنا نحن الأطفال الذين جاوزنا الخامسة من أعمارنا درسان في ركوب الخيل كل يوم: أولهما في الصباح الباكر وثانيهما في المساء. وكنا نمارس هذه الرياضة المحببة لنا برفقة أحد الخدم وفي هذه الساحة نفسها، ولكن دون أن نعكر صفو الحياة على أصدقائنا الحيوانات فيها. وكان إذا ما برّز أحدنا في هذه الرياضة منحه أبونا مطيا خاصاً به؛ وكان للبنين منا حق اختيار إحدى الخيول العربية العتاق التي تزخر بها اصطبلات السلطان؛ وكانت البنت تمنح بغلاً عمانياً أبيض مزركشاً بالزينة الغالية ومثقلاً سرجه بالحلى النفيس. وعدا عما في ركوب الخيل من رياضة للجسم، فقد كانت دروس الفروسية تسلية ممتعة لنا في بلد تنعدم فيه المسارح والحفلات؛ كما كانت السباقات العامة للخيل نادرة فيه جداً،، وإن جرت فمن النادر ألا تنتهي بحادث مؤلم أو كارثة محققة.

وقد كاد سباق الخيل مرة أن يكلفني حياتي: ففي غمرة حماسي وأنا أحاول أن أسبق أخي حمدان غفلت عن أمري، فوجدت نفسي فجأة أمام جذع طويل بارز يسد عليّ الطريق ويكاد أن يحطم رأسي، ولو لم أرم في غمرة الفزع والذهول بنفسي أرضاً لما نجوت في اللحظة الأخيرة من كارثة محققة.

* * *

ومن المظاهر المتميزة في بيت الموتني كثرة السلالم وغرابة تصميمها: فأما عن كثرتها فحدّث ولا حرج، وقد نجد تبريراً لذلك في سعة القصر وتعدد إبهائه وأجنحته؛ أما وجه الغرابة فيها فهو علوها غير المتناهي وانتصابها الشاقولي المخيف، ثم ارتفاع المسافة بين درجات السلم الواحد حتى ليخيل إليّ أنها بنيت للجن أو العمالقة. فإذا كتب لك أن ترقى إحداها فإنك تصعد وتصعد عمودياً دون عطفة في السلم أو مكان للاستراحة فيه، ودون ما جدار للاستناد عليه، حتى تنقطع أنفاسك وتنهار قواك؛ أما إذا استعنت بالدرابزين الخشبي فستجده واهياً ركيكاً يكاد أن ينهار بين يديك، فإذا انتهيت منه بعد هذا كله سالماً فقد وجب عليك الحمد للّه حمداً كثيراً. وإذا هان الصعود فإن النزول عليها أكثر مشقة وأكثر رعباً: فالواقف على رأس السلم العمودي الانحدار يصيبه الدوار ولا شك إذ يجد الأرض عنه بعيدة نائية وهو لعمودية السلم لا يستطيع أن يتبين درجاته أمامه أو تحت قدميه. وأشبه ما يكون حاله بمن يحاول أن يرمي بنفسه إلى البحر من صارية شاهقة الارتفاع في مركب شراعي.

وكانت درابزينات السلالم كما قلت من الخشب؛ وكانت جميعها لكثرة استعمالها واهية مضعضعة لا ينفع فيها التصليح المستمر.

ومن الصور التي لا أنساها صورة الفزع الهائل التي تملك سكان جناحنا حين استيقظوا صباح أحد الأيام ووجدوا أن جهتي الدرابزين في سلمنا قد انهارتا أثناء الليل. وما زالت حتى اليوم أعجب كيف مر الأمر بسلام مع كثرة الصاعدين والنازلين على ذلك السلم في كل دقيقة من دقائق الليل والنهار.

ولم يكن علم الاحصاء معروفاً في زنجبار، لذلك فلا أحد يعرف بالضبط عدد السكان في بيت الموتني. ولكن إذا كان لي أن أجازف بتقدير هذا العدد فما أظنني مبالغة أبداً إذا ما قدّرت عددهم بألف نسمة على الأقل. وليس هذا فحسب فإنّ بيت الساحل ـ وهو قصر أبي في المدينة ـ كان في الواقع أكثر ازدحاماً من بيت الموتني. ولا يستغربن القارئ هذا العدد، فإن ضخامته ستتضاءل أمام عينيه إذا أخذ بالحسبان أن من مظاهر السيادة والإمارة في الشرق أن يحيط الناس أنفسهم بأفواج من الخدم والعبيد.

* * *

وكان من عادة أبي أن يقضيَ في البيت الأول ثلاثة أيام من كل أسبوع، ويقضي الأربعة الباقية عندنا في بيت الموتني، حيث كان يحتل فيه الأجنحة الكبرى المطلة على البحر، وتشاركه سكناها زوجته الشرعية الوحيدة، وهي إحدى قريباته البعيدات.

وكان أبي السيد سعيد يحمل لقبي إمام مسقط وسلطان زنجبار. والإمامة لقب ديني لا يمنح للسلاطين، لكننا ورثناه عن جدي الأكبر الإمام أحمد بن سعيد. وظل اللقب وراثياً في أسرتنا يحق لكل ابن من أبنائها أن يلحقه باسمه.

ولأني كنت من أصغر أطفال السيد سعيد فلم تتسنَّ لي رؤيته إلا في شيخوخته. وعلى هذا فإني لا أتذكر صورته إلا بلحيته البيضاء الوقور: وكان طويل القامة، نحيل القوام، وقور السمت مهيباً؛ وكانت تقاسيم وجهه تطفح بالرقة والحنان، ولكنها في الوقت نفسه تفرض الهيبة والاحترام. ورغم أنه كان من رجال الحرب والقتال، ويجد متعته بالغزو والفتوح، فقد كان لنا جميعاً مثلاً أعلى والداً وأميراً. وكانت العدالة مبتغاه، والمساواة في المعاملة ديدنه، وقد فرضها في بيته وبين رعيته، وكان لا يتأخر عن إيقاع العقاب بأعز أبنائه إذا ما ثبت تقصيره، حتى ولو اشتكاه أصغر الخدم.

وكان أمام الخالق مثال الخشوع والورع والتقوى؛ كما كان ـ على العكس من كثيرين غيره من الملوك والسلاطين ـ بسيطا متواضعاً، بعيداً بطبعه عن التعالي والكبر والجفاء ولكم كنا نشهده ممتطياً جواده متجهاً إلى دار أحد عبيده ليهنئه وأهله بالأفراح، أو ليواسيهم في الأحزان، وليغدق عليهم مع هذا أو ذاك الهدايا والعطاء الجزيل.

وكان من عادة أبي أن يناديني «بيبي» أي السيدة العجوز وذلك لأني كنت مغرمة بنوع من حساء الحليب وهو الأكلة المفضلة للعجائز الدرداوات.

أما أمي فقد كانت شركسية بالولادة، عاشت طفولتها مع أبويها وأختها وأخيها عيشة هادئة آمنة في إحدى مزارع أبيها، لكن حبل الأمن ما لبث أن اختل، ونشبت الحرب فجأة، وامتلأ المكان بأفواج المغيرين، فالتجأت عائلتها الصغيرة إلى مكان تحت الأرض ـ كما كانت تصفه أمي وهي تعني على الأرجح القبو أو السرداب، ولم يكونا معروفين في زنجبار يومئذ ـ لكن الغزاة المغيرين اكتشفوا المخبأ، واقتحموه وقتلوا الوالدين، وتناهبوا الأطفال الثلاثة الصغار، وحملوهم على ظهور خيولهم. ولم تسمع أمي منذ ذلك الحين شيئاً عن أختها وأخيها، ولم تكن كثيرة الكلام عنهم. والواقع أنها لا تذكر من الحادث وما قبله إلا أطيافاً شاحبة، فقد كانت آنئذ طفلة صغيرة في حدود الثالثة أو الرابعة من العمر ولكنها إذا ما ذكرت أهلها اكتسب صوتها نبرة شجو وحنين تكشف للسامع تواً عما يضطرم في حنايا ضلوعها من حزن عميق وأسى دفين لم يبددهما مرّ السنين.

ولا بد أن أمي دخلت بيت أبي وهي في سن صغيرة جداً لا تتجاوز السابعة، فقد خلعت أولى أسنانها اللبنية في بيته، وفيه نشأت وترعرعت رفيقةً لاثنتين من أخواتي كن يقاربنها عمراً، ومثلهن ومعهن تعلمت القراءة والكتابة، وهو أمر ذو بال في مجتمعنا ظل في مستقبل أيامها يميزها عن نظيراتها من سراري أبي اللواتي كن يدخلن عصمته بعد سن السادسة أو الثامنة عشرة، حيث يكنّ قد فقدن الطموح للتعلم، أو يأنفن من مشاركة الأطفال الجلوس على مقاعد الدراسة.

ولم تكن أمي جميلة، ولكنها كانت طويلة القامة قوية بنيان الجسم، وكانت بيضاء البشرة ذات عينين سوداوين جميلتين وشعر أسود ناعم طويل ينسدل حتى ركبتيها. وكانت رقيقة الطبع، حلوة الخلق، ذات نفس سمحة طيبة، ولهذا كانت ظاهرة البساطة والتواضع منظراً ومخبراً. ولم يكن يستهويها في الحياة شيء مثل عمل الخير وبذل العون للسائل والمحتاج. وكثيراً ما كانت تزور المرضى من سكان قصرنا بل وكانت تحرص على تمريض البعض منهم بنفسها إن اقتضى ذلك. وما زلت أذكر صورتها وهي تنتقل من مريض إلى آخر وفي يدها كتاب اللّه، تقرأ منه عليهم ما يشجعهم أو يواسيهم أو يسليهم، وتدسّ لهم ما تيسّر من الهدايا والعطاء لتدخل على قلوبهم البهجة والسرور.

وقد أكسبها طبعها الرضي وسجيتها السمحة صداقات الكثيرين من سكان بيت الموتني رجالاً ونساء، وهو أمر يندر حدوثه لامرأة في قصور الحريم العربية.

وكانت أمي ربة بيت ماهرة، دقيقة في أداء واجباتها، حسنة الذوق والترتيب، محبة للنظام. وكانت لها مهارة ملحوظة في أعمال الإبرة والتطريز، لكن لم تكن لها هوايات ثقافية متميزة غير الدأب المتواصل على قراءة القرآن، وهو كتابنا السماوي المقدس. وفي الحق اني لم أشهد طيلة حياتي امرأة أكثر منها تقى وورعاً وإيماناً باللّه وطاعة له. وإني لأذكر الآن إحدى الليالي المقمرة شديدة الريح، وقد شبت فيها نار قوية في جناح الاصطبلات، وكان أبي وكبار إخوتي غائبين عنا، فارتبك الخدم، وحاروا في أمرهم، فاشتد لهيب النار، وهددت بالامتداد إلى القصر؛ وبلغ الذعر بأحدهم أن أنذرنا خطأ بأن النار قد علقت في القصر فعلاً، وطلب إلينا الخروج منه طلباً للنجاة، فلم يكن من أمي إلا أن حملت كتاب اللّه في يمناها، وحملتني في يسراها، وخرجت من أبهاء القصر غير حافلة بما تركته خلفها من نفائس المال والمتاع.

أما بالنسبة لي، فقد كانت أبداً ودوما الأم الطيبة المحبة الحنون. وكنت وحيدتها وكل أملها في الحياة بعد أن فقدت طفلتها الأولى قبل مولدي بقليل، وإن لم يمنعها هذا من إنزال العقاب علي حين يبدر مني ما يستحق العقاب...

* * *

وكان لأمي مقام ملحوظ عند أبي السلطان. فكان لا يرفض لها طلباً، وإن كانت هي من جانبها وبطبيعتها قليلة الطلبات لنفسها، فإن تقدمت إليه بشيء منها فليس لنفسها، وإنما مما يكلّفها به الآخرون. وكان أبي يقدّر لهذا هذه الميزة. وكان من مظاهر تقدير السلطان لها نهوضه إليها من مقعده وتقدمه إليها خطوة أو اثنتين، وهو امتياز ذو دلالة كبيرة على الحب والتقدير لا يحظى به إلا البعض القليل من زوجاته الكثيرات.

وعلى قدر ما أتذكر، فلم يكن لأبي السلطان طيلة حياته أو منذ مولدي على الأقل إلا زوجة شرعية واحدة. أما الأخريات ـ وقد ترك منهن عند وفاته خمساً وسبعين ـ فقد كنّ من الجواري والاماء اللواتي كان يشتريهن أو يتملكهنّ بين الحين والآخر. وكان لفظ الزوجات يطلق عليهن تجاوزاً ومن باب التعميم، ولا يقصد به على كل حال معناه الشرعي الدقيق.

وكانت زوجته الوحيدة هذه هي عزة بنت سيف من فرع بيتنا المالك في عمان. وكان لها الحكم المطلق والكلمة العليا في بيته. ورغم ضآلة حجمها وقلة حظها من الجمال، فقد كانت لها السيطرة المطلقة على زوجها بحيث أنه يتبنى عن طيب خاطر كل آرائها وطلباتها. وكانت معاملتها لزوجاته الأخريات ولأولاده جميعاً تتسم بالعجرفة والتشامخ وتسقط الأخطاء، وقد كنا نحمد اللّه على أنها كانت عقيماً، فلو أنها رزقت بطفل لزاد علينا ولا شكّ عتوّها وجبروتها. ولقد كنا ـ نحن أبناء السلطان، وكان عددنا عند وفاته خمساً وثلاثين ـ جميعنا من أبناء الجواري؛ وعلى هذا فقد كنا متساوين في كل الحقوق، ولا تمييز بيننا البتّة بسبب الدم أو اللون.

وكانت عزة تختص وحدها بلقب السيدة ـ ويقابلها كلمة بيبي في اللغة السواحلية وهو يساوي لقب «الأميرة» أو يعنيه ولا يطلق إلا على سليلات البيت المالك ـ ولكنها إلى جانب ذلك كانت تحظى بالمقت الشديد لها والخوف الكثير منها من جميع مَن في البيت من كبير أو صغير في السن أو المقام. ولا أذكر أحداً في بيتنا شذّ عن هذه القاعدة. وإني لأذكر اليوم

مقدار عبوسها وشموخها حين تمرّ من أمامنا دون أن ينطلق فوها بكلمة أو تحية، ودون أن تنفرج شفتاها عن بسمة أو يختلج عضو في وجهها بالبِشْر أو الرقة... وأذكر عظم الفارق بينها وبين أبينا الشيخ الرقيق العطوف، الذي لم يكن يمر على أحد سواء أكان من علية القوم أو من أدنى الخدم إلا ووجد كلمة طيبة أو تحية حلوة يلقيها إليه بكل ابتسام وبشر.
وكانت زوجة أبي المتعاظمة المكتبرة تعرف كيف تفرض على الجميع مقامها وهيبتها، فما كانت تأذن لأحد بالمثول أمامها إلا أن تستدعيه هي. كما لم تكن تسمح لأحد أن يطيل المكوث عندنا، ولا أذكر أنها خرجت مرة إلى ساحة القصر إلا محاطة بالعديد من المرافقات والخدم،، اللهم إلا حين تذهب مع أبي إلى جناح الاستحمام لينفردا هناك وقتاً طويلاً بعد أن يُخلى المكان من كل أحد. أما داخل القصر فإن على من يصادفها أن يقف جانباً ليخلي لها الطريق، وكأنه جندي صغير صعق إذ وجد نفسه فجأة في حضرة القائد العام. وقد استطاعت بهذا الأسلوب أن تفرض نفسها على الجميع وفوق الجميع، وأن تحفظ لها المقام السامي الذي تريده لنفسها. ولكننا ـ نحن الصغار ـ لم نكن نعدم وسيلة لإظهار تمردنا عليها: فقد كان العرف الجاري في بيتنا أن نذهب ـ كل الأخوة والأخوات ـ إليها مبكرين صبيحة كل يوم لنلقي إليها بتحية الصباح؛ ولكننا لكرهنا لها كنا نتعمّد التأخير في الذهاب إليها حتى يحين وقت الإفطار الذي كان يقدم عادة في جناحها، وبهذه التصرفات الطفولية وأمثالها استطعنا أن نقلّل من الهالة التي كانت تريد أن تحيط بها نفسها. ومع كل هذا فإن الحق يقتضيني أن أعترف أن وجودها لم يكدّر كثيراً صفو الحياة وجمالها في بيت الموتني.

* * *

وكان بعض كبار إخوتي وأخواتي يسكنون معنا في بيت الموتني وكان منهم مَن يكبرني بأجيال ومنهم من يؤهله عمره أو عمرها لأن يكون جدي أو جدتي. فمن ذلك مثلاً أن علي بن سعود ابن أختي الكبرى زينة كان يكبرني بعشرات السنين، ولما رأيته لأول مرة ـ وكنت دون السادسة من عمري ـ كان الشيب قد تسلل إلى لحيته، وكان ابنه أكبر مني بسنوات، وكانت أختي زينة قد عادت إلى السكن بدار أبيها بعد أن استشهد زوجها في إحدى حروب أبي.
وخلافاً للرأي الشائع في هذه البلاد فلم يكن في بلادنا تفضيل للبنين على البنات. ولا أذكر أنني شهدت في حياتي أماً أو أباً فضّل إبناً له على بناته لمجرد كونه ذكراً. فهذا الوهم الشائع في الغرب لا أساس له البتة. وإذا كان المشرّع قد ميّز البنين ببعض الحقوق في بعض الحالات ـ كحالة الميراث مثلاً ـ فإن هذا التمييز القانوني لا وجود له البتة في المعاملة البيتية للأطفال. ولكن كما يحدث هنا في ألمانيا أو في غيرها من بقاع العالم يحدث في ذلك البلد الشرقي أيضاً. وذلك بأن يختص أحد الأبوين أو كلاهما ـ وبالسر لا بالعلن ـ أحد أطفالهما ـ إبناً أو بنتاً ـ بنوع من الحب والرعاية يفوق ما يخصّان به أولادهم الآخرين، وهذه كما أراها عاطفة إنسانية طبيعية لا غبار عليها.
وهكذا كان الحال مع أبي، فقد كان طفلاه المفضلان اثنتين من بناته، وهما اختاي شريفة وخولة. وفي مرة من المرات كنت ألعب مع أخي الحبيب حمدان فأصابني منه دون قصد سهم لم يسبب لي والحق ألماً كبيراً، حالما وصل الخبر إلى علم أبي ـ ولا أعلم كيف ـ ناداني قائلاً:
ـ سالمة ابعثي لي بأخيك حمدان إلى هنا.
ولما وصل إليه حمدان كان جزاؤه منه تأنيباً قاسياً ظل يذكره على مدى الأيام.

* * *

وكان أطيب مكان لنا في بيت الموتني هو المنظرة، وكان اسمها الشائع بيننا هو البنجلة، ولعله اسمها باللغة السواحلية. وتقع أمام القصر قرب شاطئ البحر. وكانت بناء دائري الشكل مفتوحاً من جميع أطرافه، عظيم السعة بحيث تتسع مساحته لأية حفلة باليه تقام فيها ـ لو أن هذا النوع من اللهو كان معروفاً عند قومنا. وكانت البنجلة بسقفها المرفوع فوقها كالخيمة تشبه إلى حد ما أرجوحة الخيل في مدن الألعاب، وكانت أرضيتها وسقفها ودرابزيناتها كلها من الخشب الثمين اللماع.
ولم يكن في البنجلة من الأثاث والمتاع شيء سوى العدد العديد من كراسي الخيزران. ولعلني لا أبالغ إذا قلت انها تبلغ عدة عشرات، وسوى منظار مكبر (تلسكوب) منصوب في طرف القاعة من جهة البحر كنا نستعمله للفُرجة والتسلية، وكان منظر البحر من هذا المكان رائعاً أخاذاً.
وكان من عادة السلطان أن يقصد هذا المكان مرتين أو ثلاثاً في اليوم لتناول القهوة فيه، ومعه زوجه عزة بنت سيف والبالغون من ذريته ومن يتيسر من أمهات أولاده.
ولانتظام أوقات حضوره إلى هذا المكان فقد أصبح مقصد أفراد العائلة ممن يريدون أن يكلموه في أمورهم الخاصة وعلى انفراد.
وكان يحلو لأبي العزيز أن يتمشى في هذا المكان: فكان يقضي فيه الساعات الطوال أطراف النهار يقطعه جيئة وذهاباً مقطب الحاجبين غارقاً في تأملاته وأفكاره، وكان يضلع بعض الشيء في مشيته من أثر شظية مدفع أصابته في إحدى حروبه، واستقرت في إحدى فخذيه، وأثقلت مشيته، وكانت تعاوده منها بعض الآلام أحياناً.
وكان المركب الرحماني، مركب والدي الخاص، رابضاً أمام البنجلة طوال العام، ولم تكن له في الظاهر من وظيفة إلا إيقاظنا بمدافعه الهادرة في ليالي رمضان لتناول السحور، آخر وجباتنا الليلية، وإلا تزويدنا بالرجال الذين يجدفون لنا القوارب الصغيرة كلما أردنا القيام بجولة بحرية صغيرة.
وكانت هناك صارية شاهقة العلو تنتصب أمام البنجلة، وترتفع عليها أعلام الاشارات البحرية التي ترشد السفن في قدومها وإقلاعها، والتي تستعمل أيضاً لاستدعاء بحارة المراكب ونوتية السفن والقوارب.
أما بالنسبة إلى جناح المطابخ فكان شأنه شأن المطابخ في بيت الساحل: يعج بالعاملين فيه من مختلف الجنسيات؛ وكانت أطباق طعامنا الشائعة تتنوع بين العربية والتركية والفارسية والروسية تنوع الأفواج العديدة من سكان هذين القصرين.
ولكن تعدد الجنسيات لم يؤثر على اللباس: فقد كان الزّيّ العربي هو الزي الوحيد الذي يجب الظهور فيه في بيت الموتني، فإذا ما وصلت القصر شركسية بثيابها الوطنية المزركشة أو حبشية بزيها الفضفاض ذي الألوان الصارخة، كان عليهما أن يستبدلا بهما خلال ثلاثة أيام لباساً عربياً تقدمه لهما إحدى أمينات القصر.
وكما أن من مظاهر الجاه هنا أن تظهر المرأة بالقبعة والقفاز، فإن من مظاهر الحياة في بلادنا أن تتزين المرأة بالحلي والمصوغات، والواقع أن الزينة بالحلي عندنا أمر شائع إلى حد أن الشحاذات يضعن عليهن حليهن ومصاغهن وهن يقفن في منعطفات الطرق يستجدين المارة.
وكان أبي يحتفظ في قصريه في زنجبار وفي قصره في مسقط بعمان بكنوز رائعة من الذهب واللؤلؤ والجواهر: فإلى جانب العملات الذهبية من جنيهات انكليزية وفرنسية واسبانية ونمساوية، كانت خزانته تعج بالمجوهرات النسائية النادرة المثال والنفيسة الصنع من أصغر الأشياء إلى التيجان المرصعة بدرر الماس والأحجار الكريمة. وكانت هذه الكنوز محفوظة للإهداء والعطاء وفي نطاق العائلة، عدا عن هدايا الضيوف والزوار والأغراض السياسية ـ فإذا ما زادت العائلة فرداً جديداً ـ زوجة جديدة كانت أم مولوداً جديداً ـ انفتحت أبواب خزائن الكنوز لتخرج منها الهدايا النفيسة الثمينة التي تليق بالمناسبة وبمقام القادم الجديد.
وكان من عادة السلطان إذا ما ولد له طفل جديد أن يزوره وأمه في اليوم السابع حاملاً إليهما نصيباً مجزياً من هذه الهدايا. ويكون حظ المولود في الغالب أجزل من حظ الوالدة. وكذلك كانت عادته مع زوجاته الجديدات: فكن يمنحن نصيبهن من الذهب والجوهر والمال حال وصولهن القصر، كما ويخصص لهم كبير ناظري القصر السكن والخدم والضروريات الأخرى.
ورغم أن والدي كان يتوخى منتهى البساطة في ملبسه ومظهره فقد كان شديد التدقيق والحزم مع أفراد عائلته: فلم يكن ليسمح لأحد من سكان القصر سواء أكان من الخدم أم الأولاد أو الزوجات أن يظهر أمامه في غير كامل زيه وزينته.
وقد كانت العادة أن نجدل ـ نحن البنات الصغيرات ـ شعورنا على شكل ضفائر صغيرة قد تبلغ العشرين عدداً في بعض الأحيان، ثم تربط هذه الضفائر بأشرطة رفيعة ملونة، ثم تجدل نهايتها في ضفيرة واحدة تتدلى من وسطها على قفانا القطع الذهبية الدقيقة الصنع والمفصصة بالأحجار الكريمة والجواهر النفيسة. وكانت التسريحة الأخرى ـ وهي الأجمل والأليق ـ أن تترك الضفائر ونهايات الأشرطة مدلاة على ظهورنا دون ضفر ويعلق في نهاية كل منها قطعة ذهبية قد حفرت عليها آية قرآنية، وكانت هذه الحلي ترفع عن رؤوسنا أثناء النوم ثم تعاد إلى مكانها في صبيحة اليوم التالي.
وكان من تمام الزي الرسمي لنا، نحن البنات الصغيرات، وحتى نبلغ سن الحجاب، أن نرتدي فوق فساتيننا المعتادة قميصا فضفاضاً يغطي أجسامنا يصنع من قماش شفاف يطرز أحياناً بخيوط من الذهب والفضة، فيكشف عن جمال الفستان، ولكنه يحجب مفاتن الجسم التي يظهرها الفستان عادة.
وفي صبيحة أحد الأيام غافلت مربيتي، وتسللت من غرفتي خلسة دون أن أضع هذا القميص قاصدة مجلس والدي طمعاً في كميات الشيكولاته الفرنسية التي اعتاد أن يوزعها على أطفاله كل صباح. ولكنني بدلاً من أن أتسلم الحلوى المرتقبة أومأ والدي إلى أحد الخدم لاخراجي من الغرفة، وقد حملني هذا الخادم وأعادني من حيث أتيت إلى مربيتي المرعَبة. ومن يومها تعلمت أن لا أظهر في الحضرة الأبوية إلا بكامل زينتي ولباسي.

* * *



وكان من بين صديقات أمي الحميمات أختي زجان، وهي حبشية الأم وتقارب أمي عمراً، واثنتان من زوجات أبي هما مدينة وسارة، وكانتا شركسيتين مثل أمي، وقد جاءتا من نفس البلد الذي جاءت أمي منه. وكان لسارة طفلان يكبرانني سناً، هما ابنتها الكبرى خديجة وابنها الأصغر ماجد. وكانت أمهما شديدة الحب لهما كثيرة التعلق بهما، كما كانت تغمرني بحب وحنو وافرين. وكانت أمي من جانبها تختصهما بالحب والرعاية لا تفرق بيني ـ أنا ابنتها الوحيدة ـ وبينهما، فنشأنا نحن الأطفال الثلاثة وكأننا أخوة أشقاء.

وكانت سارة ضعيفة البنية معتلة الصحة تتوهم دوماً أن أيامها في هذه الدنيا لن تطول، وكانت كثيرة الهم على مصير طفليها من بعدها. ولهذا فقد تعاهدت وأمي على أنه إذا ما اخترمت المنية حياة إحداهما فإن الباقية منهما على قيد الحياة سترعى أطفال الراحلة رعايتها لأطفالها كما كان شأنهما في حياتيهما.

وحين حان الأجل، ورحلت سارة عن هذه الدنيا، كان ابنها وبنتها قد بلغا من العمر سن الفتوة والإدراك بحيث لم يعودا بحاجة إلى رعاية خاصة، ومع هذا فقد وفت أمي بوعدها لصديقتها فأسبغت على خديجة وماجد مثل ما كانت تسبغه عليّ من رعاية واهتمام.

* * *

وكانت العادة في عائلتنا أن يبقى الأمراء ـ أي الذكور من أبناء أبي ـ تحت رعاية أمهاتهم حتى يعلن عن بلوغهم سن الرشد في الثامنة عشرة أو العشرين من أعمارهم. وكان هذا الإعلان يتأخر حيناً أو يتقدم تبعاً لسلوك الأمير ومقدار نضجه وحسن تصرفه، وتبعاً لرضى الوالد عنه؛ ويتم بمراسم تقليدية يترأسها السلطان وكبار القوم من وزراء وقضاة.

وكان الإعلان عن بلوغ الأمير مرحلة الرجال امتيازاً يتلهّف عليه الفتيان في بلادنا، كما هو الحال في كل بلاد العالم على حد سواء، فهو يعني بلوغ الفتى مرتبة الرجال. وفي عائلتنا كان يعني إلى جانب ذلك استقلال الأمير في أموره، وتملّكه داراً مستقلة لسكناه، يتبعها العديد من الخدم والحشم، وعدداً من خيار الجياد، عدا عن مكافأة شهرية مجزية تجري عليه طول الحياة.

وعلى هذا المنوال منح أبي أخي ماجداً هذا الامتياز. وقد استحقه قبل السن المعتاد لدماثة خلقه وحسن تصرفاته. فقد كان مثال التواضع والخلق الكريم، وقد كسب بأخلاقه الرضية وطبعه السليم وعطفه الوافر محبة الجميع واحترامهم.

وبالنسبة لنا، أمي وأنا، فما كان يمر أسبوع واحد إلا ويركب إلينا في حاشيته (فقد كان كأمه الراحلة يسكن بيت الساحل) ليؤدي التحية إلى أمي ويتفقد أحوالنا، ثم ينتقل ليشاركني ألعاب الطفولة، وكأننا طفلان في سن واحد رغم أنه يكبرني باثني عشر عاماً.

وفي أحد الأيام وصل إلينا ماجد وعليه علائم السعادة والغبطة وأنهى إلى أمي بشرى رضاء الوالد عنه. فقد أعلن الوالد بلوغه سن الرشد، ومنحه حرية التصرف، ووهبه دارة خاصة به. وقد توسل إلى أمي أن ننتقل للسكن معه وأخته في دارته الجديدة. كما أرسلت خديجة رسالة إلى أمي بهذا المعنى.

ورغم تقدير أمي لأريحيّته ودعوته، ورغم ما تحمله من المحبة والود له ولخديجة، فإنها رفضت أن تلبّي رجاءه دون علم السلطان وموافقته، ووعدته أن تفاتح والده بالأمر. ولكن ماجداً اختصر الطريق، ووفر على أمي هذه المتاعب، فذهب لتوه إلى السلطان (كان يومها في بيت الساحل) وفاتحه بالأمر، وأقنعه بفكرته، فأقره أبوه عليها. ثم ما لبث أن عاد إلينا في اليوم الثاني حاملاً الأذن المنتظر. وهكذا أصبح انتقالنا من بيت الموتني أمرا مقضياً. وقد ظل ماجد ذلك اليوم يبحث الأمر مع أمي وقتاً طويلاً حتى استقر رأيهما على تأجيل الانتقال أياماً معدودات ليتيسر فيها لنا جمع متاعنا، وله ولخديجة تهيئة السكن الجديدة وإعداده لقدومنا.

بيت الواتورو

لم تكن النقلة من بيت الموتني هينة على أمي: فعدا عن كونها عزوفاً بطبعها عن التغيير والتجديد، فقدتعلق قلبها بهذا البيت الذي دخلته طفلة، فصار منذ ذلك الحين كل دنياها وعالمها؛ ففيه قضت كل أيام حياتها لم تخرج منه إلا لماماً ولزيارات نادرة قصيرة لا تتجاوز الساعات المعدودات على مدار العام. وقد ألفت العيش في هذا البيت وأحبته كما أحبت أهله وأحبوها وشاطرتهم أفراحهم ومآسيهم ومحضتهم صفو الود والولاء، وكان يعز عليها أن ترحل عنهم، وتفارق أصدقاءها في هذا البيت، وهم كل أصدقائها في هذه الدنيا، ولاسيما صديقتاها المفضلتان مدينة وزجان.

ولكن أمي ضحت بكل هذه المشاعر، ووأدت عواطفها الشخصية، ورضيت بالانتقال من بيت الموتني اعتقادا منها ـ كما اعترفت لي فيما بعد ـ أنها قد تكون في المكان الجديد أكثر نفعاً لخديجة وماجد أولاد صديقتها الراحلة سارة، وأقدر ـ من ثمّ ـ على الوفاء بعهدها لها.

ولم يكن حزن أهل الدار على فراق أمي بأقل من حزنها على فراقهم: فما أن شاع خبر رحيلنا عنهم حتى بدأ العتب يأتيها من كل صوب، والأسئلة تنهال عليها من كل صديق وصديقة: «أحق انك مللت العيش معنا يا جيليفدان (وكان هذا اسمها) وقررت الرحيل عنا؟ ما الذي غير قلبك نحونا؟» إلى آخر هذه الأسئلة. وكان رد أمي إليهم أن النقلة لم تتم بإرادتها، وإنما هي قضاء من اللّه لا مندوحة عنه.

ولربما تصدم كلمة «قضاء من اللّه» تفكير بعض القراء فيمطّون شفاههم سخرية أو يهزّون أكتافهم استخفافاً بالفكرة وكاتبتها. وهؤلاء ولا شك ممن أغلقوا أبصارهم وبصائرهم دون عظمة الخالق المتجلية في الأرض والسماء، وتجاهلوا إرادته العليا معتقدين أن الصدفة لا غيرها هي التي تقرر مصائر الإنسان.

ولكن من الواجب أن يذكر هؤلاء القراء أن صاحبة هذه المذكرات إنما تروي هنا ذكرياتها عن الحياة العربية في البيوت العربية، حيث لا وجود هناك البتة لكلمتي الصدفة والطبيعة، كما يجب ألا يفوت هؤلاء القراء أن الكاتبة قد ولدت ونشأت على دين الإسلام، والمسلم يؤمن بأن اللّه ليس هو الخالق والحافظ والقابض فحسب بل هو العلي المهيمن المدبر أيضاً، وأنه لا يكون شيء إلا ان يشاءه وان إرادته ـ لا إرادة الإنسان ـ هي العليا والسائدة في كل الأمور صغيرها وكبيرها.

ورغم لوعة الحزن واكتئاب الفؤاد فقد أنهينا في بضعة الأيام المحددة استعداداتنا للسفر، وأخذنا ننتظر عودة ماجد ليشرف بنفسه على رحلتنا. وكان يتملكني في هذه الفترة شعوران: شعور بالحزن لفراق لداتي ورفاق طفولتي وبالأخص أخي حمدان وأختي رولاب، وشعور آخر بالفرح للخلاص إلى الأبد من معلمتنا الشديدة القسوة المرعبة الملامح.

وكان جناحنا خلال هذه الأيام أشبه ما يكون بخلية نحل كبيرة يعج بالزوار المودعين بين غاد ورائح، وكان كل مودع يحمل معه من هدايا الوداع ما يتناسب مع مقامه ودرجة عاطفته نحونا. وهدايا الوداع عادة شائعة عريقة في بلادنا يقدمها الناس إلى أصدقائهم عند السفر، بل وحتى عند انتهاء الزيارات القصيرة. وما من أحد يستطيع إقناع العربي بالامتناع عن تقديم هديته إلى صديقه المسافر مهما قلّت قيمتها. وأذكر بهذه المناسبة أنني ـ وكنت لما أزل طفلة صغيرة ـ ذهبت مرة مع أمي وجمع من النساء في نزهة إلى إحدى المزارع، ولما أوشكنا على مغادرة المكان وركوب زوارقنا للعودة إلى بيت الموتني، أحسست بيد تربت على كتفي بلطف، فلما التفت ورائي وجدت زنجية عجوزاً تحمل بيدها صرة صغيرة ملفوفة بورق الموز قدمتها إليّ قائلة بهمس «إنها لك يا سيدتي الصغيرة، وهي أول شيء ينضج في مزرعتي». ولشدة فرحي أسرعت بنزع الأوراق لأجد داخلها رأس ذرة حديث الجني. ولم أكن أعرف هذه الزنجية العجوز، ولكني علمت بعدئذ أنها كانت من خادمات أمي. ولقد كانت هذه الهدية موضع فرحتي وابتهاجي، وما زلت أسترجع ذكراها بالغبطة والسرور.



* * *

.وأخيراً وصل إلينا ماجد وأعلن أن سفرتنا ستكون في مساء اليوم التالي، وأن أوامر أبي قد صدرت إلى قبطان الرحماني ليرسل إلينا مساء الغد مركبين شراعيين: يخصص الأول لركوبنا والثاني للحراسة ونقل الحاشية والمتاع.

وكان يوم رحيلنا مليئا بالحركة ووداع الأصدقاء. ومن حسن الحظ فقد كان أبي في بيت الموتني يوم رحيلنا، ولربما تعمّد المجيء إليه ليودّع أمي ويشرف بنفسه على أمور الرحلة؛ وعلى كل حال فقد ذهبنا إلى البنجلة للتشرّف بلقائه فيها، وقد كان فيها فعلاً، وكان كعادته غارقاً في أفكاره وهو يذرع المكان جيئة وذهاباً. ولكنه ما إن رأى أمي مقبلة عليه حتى تقدم نحوها، واستقبلها هاشاً باشاً، ثم انغمسا في حديث ودي هامس أمر السلطان خلاله أحد القوم أن يقدم لي الشّراب وبعض الشيكولاتة، ولربما فعل ذلك ليقطع عنه سيل أسئلتي المتتابعة عن السفرة وما إليها والتي كان يضطر من أجل إجابتي عنها إلى قطع حديثه مع أمي.

ويستطيع القارئ ـ طبعاً ـ أن يتصور مقدار انفعالي وفضولي حول سفرتنا المرتقبة وعن بيتنا الجديد والحياة فيها بصورة عامة، فلم أكن حتى ذلك اليوم قد رأيت المدينة إلا مرة واحدة فقط، ولفترة قصيرة جداً، انقضى أكثرها بالسلام على العدد الكثير الذي كان ينتظرنا من الأخوة والأخوات وزوجات الأب.

وبعد وداع السلطان انتقلنا إلى جناح صاحبة الحول والعظمة عزة بنت سيف، حيث تنازلت بالوقوف على قدميها حين استقبالنا ووداعنا، وكان هذا منها شرفاً كبيراً لنا إذ إن عادتها أن تستقبل زوارها وتودعهم وهي جالسة في مقعدها. وزادتنا شرفاً إذ سمحت لنا أن نمس أناملها الدقيقة بشفاهنا، قبل أن ندير إليها ظهورنا... للمرة الأخيرة وإلى الأبد.

وبعد انتهائنا من وداع السيدة الكبيرة أخذنا ننتقل بين الأبهاء والاجنحة صعوداً ونزولاً لنودع ساكنيها من أصدقائنا، ولكن حين لم نجد إلا البعض القليل منهم قررت أمي معاودة زيارتهم وقت الصلاة حيث يمكن رؤيتهم جميعاً على وجه التأكيد.

وفي الساعة السابعة مساء ألقى المركب الكبير المعد لنقلنا مراسيه أمام البنجلة: كان من مراكب أبي الخاصة ويقوده على أما أذكر عشرة ملاحين عدا النوخذة ومساعديه. وترتفع على صاريته راية أبي وشعاره، وهو علم أحمر اللون خال من كل شارة أو نقش. وفي نهاية المركب أعدت مقصورة للجلوس، وهي عبارة عن مكان فسيح تمتد فيه المفارش الحريرية الأنيقة ويتسع لحوالي عشرة أشخاص، وتغطيه مظلة واسعة ناصعة البياض لها أطراف تنسدل عند الحاجة على جوانب المكان اتقاء للريح أو المطر أو تأميناً للسرية والانفراد.

وبعد دقائق من وصول المركب جاءنا جوهر العجوز ليعلن لنا بدء الرحلة. وجوهر هذا من قدامى الرجال في خدمة أبي، وقد أمره ورفيقاً له بمصاحبتنا في السفرة والإشراف على راحتنا خلالها. وقد ظل أبي طيلة الوقت في البنجلة يشرف من بعيد على ترتيبات السفر.

وإذ أن أوان الرحيل فقد ودعنا أصدقاؤنا وودعناهم بالقبلات التي تخالطها دموعنا الجارية وما زالت كلمات «الوداع... الوداع... مع السلامة» المنطلقة من حناجرهم التي خنقها الحزن والألم ترنّ في أذنيّ حتى اليوم.

* * *

ولأن الماء كان ضحلاً قرب الشاطئ فقد رسى المركب بعيداً عنه بعض الشيء، وكان لا بد للعبور إليه من إختيار أحد سبل ثلاثة: فاما أن يحملك أحد الملاحين على ظهره عابراً بك الماء، وإما أن تجلس على كرسي يحمله بك اثنان من أشداء الرجال فيخوضا الماء بالحمل النفيس الثقيل إلى المركب، وإما أن تعبر سيراً على لوح خشبي يمتد من اليابسة حتى حافة المركب. وهذا ما اختارته أمي، وكان يسندها في سيرها أحد الخدم الكهول في حين رفعني بين ذراعيه خادم آخر، ونقلني إلى مقصورة المركب إلى جانب أمي وجوهر.

وكانت النجوم اللماعة في السماء والفوانيس الملونة في المركب تنعكس ظلالها على سطح الماء فتضفي على البحر منظراً ساحراً خلاباً. وما إن تحرك المركب حتى بدأ بحارته ترانيمهم الهادئة على إيقاع مجاديفهم في الماء، كما هي عادة الملاحين العرب. ولم نكد نترك الشاطئ حتى رحت في حضن أمي في نوم عميق لا أدري أطال أم قصر، ولكني أذكر أني أفقت منه فزعة مذعورة على أصوات كثيرة تنادي باسمي لم أستطع أن أتبين مصدرها. فلما فتحت عينيّ المثقلتين بالنعاس أدركت أن الرحلة قد انتهت، وأننا في سبيل مغادرة المركب.

وقد رسى المركب أمام بيت الساحل القائم كما يظهر واضحاً من اسمه على ساحل البحر. وكانت شرفته الكبيرة المطلة على البحر مضاءة بأحسن زينة بالفوانيس الملونة، وكانت مكتظة بجمع حاشد من النساء والأطفال كانوا في الواقع غرباء عليّ، وان أدركت على التو أنهم لا بد وأن يكونوا أخوتي وأخواتي وزوجات أبي قد تجمعوا لمشاهدتنا والترحيب بنا. وكان الأطفال منهم أصغر مني سناً، وبالتالي فقد كان تلهفهم على التعرف بي أكثر من تلهفي إليهم، وحالما رأى هؤلاء الصغار وصول المركب وفي غمرة فرحهم بوصولي فقد اطلقوا حناجرهم الصغيرة بالنداءات التي أيقظتني من نومي.

وغادرنا المركب بنفس الطريقة التي صعدنا فيها إليه، وما إن وطأنا الأرض، حتى انطلق إليّ أخوتي الصغار يحيونني بشوق ووداد لم أكن أتوقعه، ويلحون علينا لمصاحبتهم إلى دورهم، إلا أن أمي اعتذرت لهم عن ذلك خشية أن يؤذي هذا التصرف خديجة التي كانت بدورها تنتظرنا في نافذة بيتها. والحق أن قرار أمي بمنعي من مصاحبة أخوتي على التو واللعب معهم قد حزّ في نفسي، فقد كنت تواقة إلى هذه اللحظة السعيدة التي رسمت تفاصيلها في ذهني. ولكنني لم أجرؤ طبعاً على مكاشفة أمي بأفكاري لأنني أعلم علم اليقين أنها إن قررت أمراً فلن ترجع عنه، فرغم تفانيها المدهش في محبتها الوافرة لي، فقد كانت شديدة الحزم، صارمة العزم قوية الإرادة، لا تتساهل في الواجب أبداً، ولعلها قرأت أفكاري وأرادت ارضائي، فوعدتني بزيارة قريبة إلى بيت الساحل حالما يعود أبي إليه.

وعلى هذا مضينا في طريقنا إلى بيت الواتورو، بيت ماجد وخديجة، ويقع بالقرب من بيت الساحل، ويطل مثله على البحر. وقد استقبلتنا أختي خديجة عند مدخل الدار بالعناق والقبلات، ورحبت بنا ترحيباً قلبياً لا شائبة فيه، ثم قادتنا إلى جناحها حيث دار الخدم علينا بأنواع المرطبات، في حين ظل ماجد وصحبه في غرفة الاستقبال، ولم يدخل علينا إلا بعد أن استأذنت له خديجة من أمي، كما تقضي العادة بذلك. وما كان أروع سرور وماجد وأصدق عواطفه إذ تحقق له أن يضمنا في بيته.

وقد خصصت لنا في البيت الجديد غرفة واحدة فقط، ولكنها واسعة المساحة كاملة الفرش والأثاث على الطراز العربي المألوف فكانت في الواقع تفي بكل متطلباتنا، وكان أبرز ما تتسم به مصاقبة إحدى نوافذها لمنارة المسجد المجاور للبيت. وكان من عادة القوم ـ حتى أصحاب الثراء منهم ـ أن يكتفوا بغرفة واحدة. فالعادة هناك أن يرتدي الناس نفس الملابس ليل نهار، وكانوا لفرط اهتمامهم بالنظافة والطهر يستطيعون الاستغناء عن غرف خاصة للنوم.

وكان الطراز المألوف في ترتيب البيت لدى علية القوم كالتالي:

يغطي السجاد الفارسي أو البسط الناعمة الدقيقة الصنع أرضية الغرف، وتقسم الجدران الناصعة البياض إلى فجوات مقوّس أو مزخرف أعلاها، ويفصل بين الفجوة والأخرى نتوء عريض من البناء، ويقطع الفجوة الواحدة عدد من الرفوف الخشبية خضراء اللون تصطف عليها أنفس آنية البلور والفخار وأثمنها. والعربي حريص على اقتناء أمثال هذه التحف وتزيين غرفه بها، لا يبخل من أجلها بالمال، فإذا ما استهوته أو راقت في عينيه مزهرية أنيقة أو صحن نادر من الفخار الصيني أو كأس دقيق الصنع من البلور، فلا يهمه ما يدفعه ثمناً لها. ذلك لأن زينة الدار مقياس ثراء الرجل وعلو مقامه.

ويعتنى عناية خاصة بالنتوءات بين الفجوات فتوضع عليها المرايا، وهي تطلب من أوروبا خصيصاً وحسب الأحجام والأبعاد، وتمتد المرآة من سقف الغرفة حتى مستوى الجلوس. وتخلو الغرف عادة من الصور والتماثيل التي يحرمها المسلمون لأن فيها تحدياً أو محاكاة لعملية الخلق التي ينفرد بها الخالق وحده ـ إن كان التشدد في وضع الصور قد فقد حدته مع مضي الأيام. ولكن النقص في الصور تغطيه وفرة كبيرة في عدد الساعات التي توجد في كل بيت بأعداد كبيرة وأنماط مختلفة، وهي تعلق عادة في رؤوس المرايا أو



توضع الصغيرات منها على الرفوف.
ويحرص الرجال على تزيين غرفهم بالأسلحة التذكارية الثمينة كالبنادق والسيوف والخناجر سواء منها العربية أم التركية أم الفارسية، وتزداد قيمة هذه الأسلحة طبعاً، ويزداد بالتالي افتخار العربي وتيهه بها إذا ما كانت مما غنمه هو أو آباؤه في الحروب.

ويقوم في غرفة النوم سرير كبير مصنوع عادة من الخشب الغالي، ومزين بنقوش محفورة من صنع الهند. ويغطي السرير من جميع نواحيه بكلة من التول أو الموسلين الناصع البياض. وللسرير قوائم عالية ترفعه عن الأرض عالياً بحيث لا يُستطاع الوصول إلى الفراش إلا بالصعود على كرسي يوضع بجوار السرير، أو بالاستعانة بإحدى الخادمات. ويُستغل الفراغ الموجود تحت السرير لأغراض المنام أيضاً بالنسبة إلى مربيات الأطفال أو ممرضات المرضى.

ويندر وجود الموائد في البيوت العربية باستثناء سراة القوم، وعلى العكس من ذلك فإن الكراسي متوافرة أعداداً وأنواعاً. وكذلك لا وجود لخزانات الملابس ودواليبها في الغرف العربية، ويستعاض عنها «بالسحارات» وهي صناديق كبيرة ضخمة لها أدراج متعددة وتحتوي على مخبأ سري لوضع النقود والحلي، وقد تجد في الغرفة الواحدة أعداداً من هذه السحارات مرصوفة إلى جدران الغرفة، وبعض هذه السحارات مصنوع في الهند من خشب نفيس تزينه النقوش المحفورة وبعضها من صنع محلي أو مجلوب من عمان، ويمتاز بأصباغه البدائية المتناسقة؛ وجميعها تقريباً مزينة بمسامير نحاسية صفراء ذات رؤوس مدورة كبيرة وقد صفت على أشكال الأهلة والنجوم.

وثمة ظاهرة غريبة في بلادنا وهي ان النوافذ تترك مفتوحة طول الوقت إلا في حالات المطر، ولهذا فإن تعبير «التعرض لتيار الهواء» لا معنى له في تلك البلاد.

* * *

ولم يرق لي مكاننا الجديد أول الأمر، فقد بدا لي بيت الواتورو ضيقاً مملاً بمقارنته إلى بيت الموتني. وقد افتقدت في البيت الجديد لداتي وأقراني من أخوة وأخوات وأصدقاء، كما افتقدت في البيت الجديد ساحات اللعب الكثيرة الواسعة في بيت الموتني، وأكثر من هذا وذاك فقد افتقدت نهر الموتني الجميل الهادئ الذي كنت أسيّر في سواقيه العديدة زورقي الشراعي الجميل والعزيز إلى نفسي، فليس في البيت الجديد أو حواليه نهر أو ما أشبه، وكان الماء يأتيه من بئر في جانب القصر. ولطالما سألت أمي «متى نعود إلى بيتنا القديم؟ وهل سنبقى هنا إلى الأبد؟ وهل كتب علي أن أسيّر قاربي في حوض الغسيل؟» ولأني كنت شديدة الكلف بهذا الزورق، فإني لم أسمع لأمي الطيبة الحنون التي تريد دوماً أن تعطي الغير كل ما عندها، عندما طلبت إليّ قبل رحيلنا أن أهدي هذا الزورق الجميل إلى أحد أخوتي في بيت الموتني.

وبالاجمال فقد مررت بتجربة نفسية جديدة لم أعرفها من قبل، وأحسست بالضيق والضجر. أما أمي فقد كانت في أحسن حالات طبعها الرضي دوماً، وقد انغمست مع خديجة في إدارة شؤون الدار حتى لم أعد أراها في النهار إلا لماماً. ومن الجانب الثاني فقد كان أخي الحبيب ماجد كثير الرعاية لي، والاهتمام بأموري،فقد اصطحبني بعد وصولنا بأيام قلائل، وطاف بي جميع أنحاء بيته يريني أقسامه ومحتوياته وكان يبدو مسروراً مزهواً به. ولكني لم أر فيه ما يثير إعجابي، فقد كان تعلقي وإعجابي ببيت الموتني يغشيان على بصري وفكري، وكنت شديدة الالحاح على أمي بالعودة إليه وإلى ملاعبي ولداتي الأحباء على قلبي، ولكني كنت أعلم أنه طلب مستحيل التنفيذ، وخصوصاً وأنها أصبحت فعلاً ذات نفع وفائدة في البيت الجديد.

وقد سرني أن أجد في أخي ماجد شخصاً محباً للحيوانات ويقتني مجموعات نادرة منها. وكانت تعجبني منها مجموعة الأرانب البيضاء، وبقدر ما كانت مصدر أنسي وابتهاجي فقد كانت مصدر ازعاج وتذمر لأمي وخديجة لما يسببوه للدار من أضرار. وكان لدى ماجد مجموعة من ديوك الصراع جمعها من مختلف أقطار الأرض، لم أر مثلها عدداً وأنواعاً، حتى في حدائق الحيوان في أوربا.

وقد اعتدت مصاحبته إلى زيارة الحيوانات؛ وقد قبل بكل طيب خاطر أن أشاركه في هواياته ومسراته هذه؛ ولم يمض عليّ وقت طويل حتى جمعت لنفسي - نتيجة لطفه وكرمه - عدداً من ديوك القتال خففت عليّ حياة الوحدة في بيت الواتورو، وجعلتها أسهل احتمالاً. وكنا في كل يوم تقريباً نأمر العبيد أن يطلقوا سراح الديكة من أقفاصها، فنستعرض أبطالها، ونشهد بعض النزالات بينها قبل أن يعود بها العبيد إلى الأقفاص ثانية.

وليس صراع الديكة بالهواية السخيفة، كما قد يبدو للبعض. فإنه عرض مسلّ يشد انتباه المتفرج، ويثير حماسه، وينتهي في الغالب نهاية كوميدية مبهجة.

واشتدت بعد ذلك الألفة بيني وبين ماجد فأخذ يعلمني المبارزة بالسيف والرمح والخنجر، كما كنا نخرج إلى بعض المزارع لنمارس الرمي بالبندقية والمسدس رغم عدم رضى الوالدة، التي لم تكن لتقر أعمال المبارزة والرماية وتخشى مغبتهما عليّ. ولكني كنت أفضل هذه الهوايات الرجالية على قضاء الوقت الطويل في أعمال الإبرة والخياطة.

ولم أغفل في أثناء هذا كله دروس الفروسية: فقد أمر ماجد عبده سروراً أن يستمر في تدريبي عليها. ومما زاد تعلقي بهذه الهوايات أنها اقترنت بتحرري - مؤقتاً - عن الدرس، إذ لم يعثر في البيت الجديد على معلمة جديدة لي، فساعد هذا كله على انتعاش معنوياتي واستعادة بهجتي وزوال انقباضي الأول من بيت الواتورو شيئاً فشيئاً.

وإذ لم يعد لأمي - كما قلت من قبل - وقت كثير لتخصيصه لي لانهماكها الزائد مع خديجة في شؤون الدار، فقد تعرفت إلى فتاة حبشية اسمها نورين، وتوثقت علاقاتنا إلى حد كبير. وقد تعلمت منها بعض مبادئ اللغة الحبشية التي نسيتها الآن كل النسيان.

على أننا لم نفقد صلتنا ببيت الموتني كلية، فقد ظللنا على اتصال دائم بأهله، نزورهم - ولكن لماماً - فيستقبلنا أصدقاؤنا القدامى بأصدق عواطف الود والترحاب. إلا أن صلتنا الدائمة بهم كانت عن طريق الرسائل الشفوية التي ينقلها العبيد بيننا وبينهم. والناس في الشرق لم يتعودوا على كتابة الرسائل، حتى وإن أتقنوا الكتابة والقراءة، وإنما يستخدمون عبيدهم لتبادل الأخبار بينهم سواء العائلية منها أم أمور الدولة المتعلقة بالحروب وتنقلات الجيوش أو المفاوضات. وقد قلت من قبل إنّ من مظاهر الرئاسة والجاه في تلك البلاد أن يمتلك المرء أكبر عدد ممكن من العبيد الذين يكون بينهم عدد من العدائين الممتازين الذين يستطيعون أن يطووا أطول المسافات في يوم واحد. وهؤلاء هم نقلة الرسائل والأخبار من مكان إلى آخر حسب ما يأمرهم به سيدهم. ومن البداهة أن يحظى هؤلاء بعناية سيدهم ورعايته، وأن يخصهم بمعاملة خاصة في المأكل والمشرب تفوق ما يتمتع به أقرانهم العبيد الآخرون: فعلى مقدار كتمانهم للأخبار ودقتهم في نقلها تتوقف خطط سيدهم ومشاريعه، وبالتالي يتوقف مستقبله كله، ناهيك بما تمتلئ به جعبتهم من أسرار البيوت وأخبار العوائل. وكم أدت خيانة أمثال هؤلاء بدافع الحقد والانتقام أو الرشوة والإغراء إلى هدم صداقات طويلة، وإلى حدوث كوارث وبيلة. وهذا ما أدى بالبعض من رجالات البلد إلى تعلم الكتابة والقراءة ليستغنوا بهما عن أمثال هؤلاء العدائين.

* * *

وقد كشفت لي حياتنا الجديدة عن مقدار كلف أختي خديجة بالحياة الاجتماعية واستقبال الزائرات: فقد كان بيتنا يعج بهم مثل خلية النحل، فلا يكاد يمر يوم واحد في الأسبوع دون أن يمتلئ الدار بأفواج الزائرات. يصلن ابتداء من الساعة السادسة صباحاً، ولربما استمر مكوث بعضهن إلى منتصف الليل. وكانت الخادمات يستقبلنهن عند وصولهن المبكر، ويقدنهن إلى جناح خاص حيث ينتظرن هناك حتى تستقبلهن ربة الدار في الساعة الثامنة أو التاسعة صباحاً؛ وكن يقضين فترة الانتظار هذه بالنوم تعويضاً عما فاتهن منه نتيجة النهوض المبكر.

ومع أن علائق الود والتفاهم بيني وبين أخي ماجد كانت تزداد وثوقاً وعمقاً، إلا أنني لم أستطع أن أحس نفس العاطفة تجاه أختي خديجة، فقد كانت أخلاق هذين الشقيقين متباينة تبايناً كبيراً. ولم يكن من الصعب، لا عليّ فحسب وإنما على كل من عرفهما من قرب، أن يلاحظ هذا الفرق بين الأخوين، وأن يعرف من منهما أكثر وداً وبشاشة وأكثر استحقاقاً للمحبة والاحترام. فعلى حين كان ماجد مثال الطيبة والتواضع والتسامح كانت خديجة حادة الطبع قاسية كثيرة التفقد للأخطاء والانتقاد لها، محبة للسيطرة والظهور. وكان كل ما - ومَن - هو أجنبي يثير ريبتها واشمئزازها. وعلى الرغم من ضيافتها المشهورة فقد كانت تتضايق حين تطلب منها سيدة أجنبية موعداً للزيارة، رغم أن أمثال هذه الزيارات لم تكن تطول لأكثر من نصف ساعة أو أربعين دقيقة.

ومع هذا كله فيقتضي الحق أن أعترف بأنها كانت ربة بيت نشطة مدبرة ذكية، دؤوبة على العمل، لا تعرف الراحة والبطالة لحظة واحدة في اليوم، وكانت إذا توفر لها فراغ من الوقت اشغلت نفسها بتطريز ثياب أخيها ماجد أو خياطة الملابس لأطفال خدمها. وكنت أعرف ثلاثة أخوة من هؤلاء الأطفال، هم سالم وثاني وعبدالله. وكان أبواهم يشتغلان في القصر، وكانوا لطافاً محبوبين، ومع أنهم كانوا أصغر مني سناً بكثير، لكن لعدم وجود من هم في مثل سني في البيت فقد نشأت بيني وبينهم صداقة متينة استمرت إلى أن تعرفت أخيراً على بقية أخوتي وأخواتي في بيت الساحل.

* * *

ما زلت منذ قدومي إلى هذه البلاد وأنا أواجه مراراً وتكراراً بالسؤال التالي وهو: «كيف تستطيع النساء العيش في بلادكم دون شغل أو عمل؟»

والسؤال ليس بعد بالمستغرب من وجهة نظر أهل الشمال الذين لا يستطيعون تصور الحياة بلا عمل، بالإضافة إلى أنهم باتوا مقتنعين بأن المرأة في الشرق لا تكلف نفسها طيلة النهار تحريك أنملة، وإنما تقضي وقتها في خمول وعزلة وفراغ في بيت الحريم.

ولهذا وذاك فإني لم أكن لأضيق ذرعا بالرد بكل لذة وسرور على فضول السائلين مرات ومرات بقدر تكرار السؤال رداً واحدا يختلف في مبناه لا في معناه، وهو، أن الظروف الطبيعية تختلف في بعض بقاع العالم عن بعضها الآخر، وهذه الظروف هي التي تتحكم في تكوين أرائنا وعاداتنا وأساليب معيشتنا ومتطلبات حياتنا.

وهذه الظروف نفسها جعلت العمل حتماً واجباً على أهل الشمال، في حين أنه ليس كذلك على أهل الجنوب. فبرودة الجو وقسوة الطبيعة في الشمال قد زادت في متطلبات العيش وكثرة اللباس وتنوع العمل، لهذا صار لزاماً على الرجل الشمالي أن يرهق نفسه كداً واجتهاداً ليؤمن لنفسه وأهله ضرورات الحياة، وأن يرهقها أكثر وأكثر إن أراد التنعم بالترف والكماليات.

وليس الأمر كذلك مع أهل الجنوب: فقد أنعمت عليهم الطبيعة بدفء الطقس وكثرة الخيرات، فلم يعودوا بحاجة إلى وثير اللباس ولا وفير الطعام، وعدا عن قلة المطالب هذه فالجنوبيون ينعمون ـ وأكرر كلمة ينعمون ـ بالقناعة وبساطة العيش؛ والعرب الذين كثيراً ما تتهمهم كتب الغرب بالكسل والخمول هم ـ بعد الصينيين ـ أكثر شعوب الأرض قناعة. وحين يقول العربي «القناعة كنز لا يفنى» فإنه يعني أن في بساطة العيش والاكتفاء الذاتي توفيراً واقتصاداً.

لكن الشماليين وقد تملكهم الغرور والازدهاء ينظرون باستعلاء وازدراء لسكان المناطق الاستوائية، وهي حالة فكرية ونفسية غير محمودة في نظري ـ على الأقل ـ، غير ناظرين إلى حقائق الأمور وأسبابها، وهي أن العمل في أوروبا أمر تقتضيه غريزة البقاء، ولولاه لكان فناؤهم عاماً شاملا، أي أن الفرد منهم مضطر للعمل للإبقاء على حياته وكيانه، ولهذا فلا يحق له أن يجعل من هذه الظروف المفروضة عليه بحكم الطبيعة فضيلة يفخر بها على الآخرين الذين كانت الطبيعة أرحم بهم منه.

وها نحن نرى الاسبان والبرتغاليين والايطاليين أقلّ كدّاً وعملاً من الألمان والانكليز، فما هو السر في هذا يا ترى؟ هل ان الأولين أكثر خمولاً وكسلاً من الآخرين؟

السر ان طبيعة الجو في بلاد الأولين أكثر اعتدالاً، وأشهر القيظ فيها أطول من أشهر البرد، وبالتالي فهم أقل حاجة للكفاح من أجل البقاء. فالجو البارد يستوجب التحسب والاحتياط لطوارئ ومفاجئات لا تخطر لأهل الجنوب ببال، لأن الظروف الطبيعية التي تفرضها هناك هي نفسها تنفي احتمال حدوثها هنا.

ولنأخذ مثلاً للمقارنة ضروريات الحياة الأولية في الشمال والجنوب: فالطفل في الشمال يحتاج منذ ولادته إلى عدد كبير من الحاجيات والأشياء لتحمي كيانه الغض من قسوة المناخ وبرودة الجو في هذه البلاد، في حين أن الطفل الأسمر المولود في الجنوب لا خوف عليه حتى وإن نام في العراء. والطفل ابن السنتين في ألمانيا يحتاج إلى قائمة طويلة من الملابس الضرورية كالحذاء والجوارب والقميص والسروال والمعطف والملابس الداخلية وضروريات أخرى من الصوف أو الفرو لتلف يديه ورجليه ورقبته ورأسه، في حين أن كل ما يحتاجه صنوه الطفل في زنجبار حتى ولو كان ابن السلطان هو قميص خفيف وغطاء للرأس فقط.

والظروف أيضاً قد غيرت حاجات المرأة وطبيعة وطريقة إدارتها للبيت، فالشمس الساطعة دوماً والهواء العليل دوماً في الجنوب يغني ربة البيت الجنوبية عن يوم الغسيل الذي تقلق له المرأة الأوروبية. فنحن في الجنوب نغسل كل يوم ما يحتاج إلى الغسيل، ولا يستغرق جفافه أكثر من نصف ساعة؛ كما أننا في الجنوب نستغني ـ إلا في القليل النادر ـ عن ستائر الشبابيك، فعدا عن أنها تحجب عنا النور والهواء فإن العناية بنظافتها وترتيبها واصلاحها تحتاج إلى جهد كبير ليس في بلادنا ضرورة تبرره.

والمرأة الشرقية مهما علا مقامها لا تحتفظ بأعداد كثيرة من الثياب. وهذا أمر طبيعي، لأن تنقلها داخل البيت قليل وزياراتها إلى خارج البيت أقل وأندر، وهي بعد لا تكشف عن نفسها في الشوارع والأسواق.

والزوج أو ولي الأمر يكفي المرأة وصول المؤن والطعام إلى بيتها كل يوم. فما عليها إلا أن تشرف على الطبخ إن كانت من ذوي اليسار، أو أن تقوم به بنفسها، إن كانت دون ذلك مقاماً. وعلى هذا فما دامت حاجات المرأة وبيتها وطفلها على هذا القدر من البساطة والقلة، وما دام زوجها أو ولي أمرها يكفيها مؤونة البحث عن هذه الحاجات وتأمينها، وما دام في بيتها من الخدم والعبيد من ينهض بالشؤون المنزلية، فما الذي يدفع المرأة العربية إلى العمل كما تفعل ـ مضطرة ولا شك ـ أختها الأوروبية؟ وترى هل لو تهيأ للمرأة الأوروبية مثل حياة أختها العربية، أكانت ترفضها وتفضل عليها حياة العمل والكد أم كانت ترضاها وتأنس لها وتترك من أجلها عملها الكادح خارج البيت؟ ما أظن الجواب على هذا السؤال موضع اختلاف.



وعلى كل فان الذي يريد أن يفهم المرأة الشرقية، ويطلع على حياتها لا بد له أن يعايشها ويقضي معها فترة من الوقت طويلة، ولا يمكن الاعتماد على أقوال السائحين والسائحات الذين يعبرون البلاد عبوراً خاطفاً، والذين قد يستقون معلوماتهم من أصحاب الخانات والفنادق. وحتى بعض الأوروبيات اللواتي قُدِّر لهن زيارة بيوت الحريم في الآستانة والقاهرة فانهن لم يفهمن حياة الحريم على حقيقتها، ولم يشهدن منها إلا مظاهرها الخارجية في غرف الاستقبال المعدة خصيصاً على النمط الأوروبي.

فإذا انتقلنا من النساء إلى الرجل، فانني لا أستطيع أن أنكر أن بني قومي بعيدون عن الحماس للعمل والاندفاع من أجله. فهم قد اعتادوا حياة الدّعة والتواكل وترك الأمور تجري في أعنتها «والأيام تفعل ما تروم». وعلى هذا لم يكن للعربي ميل للتجارة والصناعة، بل كل هواه في الحرب والزراعة. والقلائل من العرب الذين امتهنوا التجارة لم يثبتوا فيها تفوقاً كبيراً على غيرهم، وليس مرد هذا إلى قصور ذاتي في قدراتهم الفكرية أو لتفوق ذاتي في قدرات الآخرين، وإنما مرد هذا إلى الطبيعة الخيرة المعطاء ورزقها الوافر الذي تجود به عليهم كل يوم دون جهد أو تعب؛ ومرده أيضاً إلى هذا الطقس الاستوائي الذي يبعث على الراحة والاسترخاء، ومرده أيضاً إلى إيمانهم بالقدر، وكل هذه العوامل علمتهم القناعة والرضى باليسير وصرفتهم عن التفكير في غد مجهول قد لا يجيء، فإن جاء فسيجيء معه رزقه وافراً كثيراً. وينعكس هذا الطبع على الزراعة أيضاً: فلا يزرع العربي إلا ما يستطيع حصاده وأكله في أقرب وقت مستطاع ولا صبر له على زراعة الأشجار كالنخيل والنارجيل إلا مضطراً.

وعلى هذا المنوال الوادع الرضي تنساب الحياة الشرقية بصورة عامة. وسأحاول أن أصف نمط الحياة اليومي في بيتنا ـ بيت الساحل ـ وإنني إنما أصف نمط الحياة في زنجبار وعمان فقط، والتي تختلف ولا شك من نواح عدة عن أنماط في الأقطار الشرقية الأخرى.

* * *

يمكن على وجه العموم القول إن نهار المسلم تضبطه أوقات الصلاة وتسيطر عليه. فالصلاة فريضة على المسلم يؤديها خمس مرات كل يوم، حيث يسجد ورعا خاشعاً أمام الخالق الأكبر. وتستهلك أوقات الصلاة هذه مع ما يسبقها من موجبات الطهارة والوضوء ثم ما يستحب أن يليها من الأدعية والنوافل حوالي ثلاث ساعات من النهار.

وعلى كل حال فان الحياة اليومية تبدأ عند الفجر إذ يستيقظ الناس جميعهم ما بين الساعة الرابعة والخامسة لأداء أولى فرائض الصلاة وهي صلاة الفجر. وهذه الصلاة لا تستغرق طويل وقت، ويذهب بعدها الناس مذاهب شتى، فأما ذوو اليسار فيعودون إلى فراشهم لاستئناف الرقاد؛ أما المتدينون وأهل الورع والتقوى فيطيلون الصلاة، ويظلون يتلون القرآن ولا يعودون إلى النوم إلا بعد بزوغ الشمس وانتشار الضياء. أما غير هؤلاء وأولئك من عامة الناس فيبدأون عملهم بعد الصلاة مباشرة.

وفي بيتنا الواسع الذي يضم المئات من الناس من مختلف المشارب والأذواق ومن مختلف الجنسيات والأصول لم تكن هناك قواعد معينة أو ضوابط محددة تضبط منهاج حياتنا اليومية، بل كان لكل فرد من أفراد البيت أن يتبع ما يحلو له في هذا الشأن، لا يضبطهم إلا وجوب الحفاظ وبدقة صارمة على أوقات الصلوات الخمس، وعلى حضور الوجبتين الرئيسيتين. وكانت هذه المواعيد هي الاطار العام للنظام في البيت.

وعلى هذا فقد كنا نعود بعد صلاة الفجر إلى النوم ونستمر فيه حتى الساعة الثامنة، حيث توقظنا منه أنامل الوصيفات الرقيقة التي تجري على أجسامنا بمس ناعم لطيف يعيد لها حيويتها بعد طول السبات وما ان ينتهي التدليك حتى يكون الماء جاهزاً للاستحمام، كما وتكون ملابسنا قد أعدت أيضاً بعد أن ضمخت أثناء الليل بأزهار الياسمين، والقداح وطيبت بالمسك والعنبر.

وتستغرق عملية الاستحمام والزينة ساعة كاملة نخرج بعدها للسلام على والدنا بتحية الصباح، ثم لمشاركته تناول طعام الافطار، حيث يكون الطعام معداً من قبل على السفرة فلا نستغرق في تناوله الوقت الطويل الذي يستغرقه الأوروبيون.

* * *



وبعد الافطار يبدأ عمل اليوم فينصرف الرجال إلى أعمالهم خارج القصر أو داخله، ويكاد يقتصر عمل أخوتي على حضور البرزة أي مجلس السلطان. أما النساء فينصرفن إلى شققهن فرادى أو جماعات يتسلين بتطريز ثيابهن بخيوط الفضة والذهب أو ثياب أبنائهن أو أخوتهن بخيوط الحرير البيضاء والحمراء، أو يقضين الوقت بقراءة القصص أو تبادل الزيارات فيما بينهن داخل القصر.

وتلتصق الشابات اليافعات من بنات القصر ممن لا عمل لهن بنوافذ غرفهن يتفرجن على المارة والسابلة، يرضين غرورهن بما يرتفع إليهن من حين إلى آخر من نظرات اللهفة والاعجاب. وكانت هذه الجلسات مصدر متعة وسرور للشابات الحسناوات، كما كانت مصدر قلق للأمهات والعمات المجربات والفطنات إلى نتائج أمثال هذه الجلسات، واللواتي كن يتلطفن بأنواع الحيل لإبعاد الجالسة عن مرصدها الممتع.

وهكذا ينتصف النهار. ويكون الرجال قد أكملوا واجباتهم وزياراتهم والنساء قد أرسلن رسلهن برسائل شفوية إلى صديقاتهن. يخبرهن فيها عن مواعيد المساء. وتكون الساعة قد قاربت الواحدة بعد الظهر وتكون صلاة الظهر قد آن أوانها، وحين تنتهي الصلاة تكون الشمس قد توسطت كبد السماء، فينصرف كل فرد إلى غرفته الخاصة حيث يطيب له أن يتخفف من ثيابه عدا قميص واحد، ثم يفترش على حصيرة ناعمة لينة الصنع قد نقشت بالآيات الكريمة تصيداً لقيلولة خفيفة. وبين التناوم والحديث وتناول الفاكهة والحلويات يزحف الوقت إلى قرابة الرابعة حيث يحل أوان صلاة العصر (الصلاة الثالثة)؛ وبعد أدائها نعود إلى غرفنا لنتزين بكامل زينتنا، ونعاود زيارة الوالد لتحيته تحية المساء، وكان الكبار منا ينادونه بلفظه «أبي» أما الصغار وأمهاتهم فينادونه «سيدي».

ويحل الآن وقت الوجبة الثانية والأخيرة والتي تجتمع من أجلها العائلة كلها. وبعد انتهائها يرتب الخدم الكراسي في الشرقة الواسعة، ولكن لجلوس الكبار فقط؛ أما صغار القوم فيظلوا واقفين توقيراً لمن هم أكبر منهم سناً. وللسن احترام بالغ في الشرق ليس لدى غيرهم من الامم مثله: فالأصغر يحترم الأكبر، ولا يتقدم عليه في شيء.

وهناك في الشرفة تتحلق العائلة حول السلطان، ويقف بعيداً عنهم صف من البعيد المسلحين هم حرس السلطان؛ وتدار على الجالسين القهوة وعصير الفواكه، وتمتزج بأحاديثهم نغمات تنبعث من أرغون فخم كبير ـ هو أكبر ما رأيت من نوعه في حياتي ـ أو قطعة موسيقية تنطلق من الصندوق الموسيقي، أو قد يستعاض عن هذا كله بغناء شجي حنون ترنمه فتاة عربية عمياء، اسمها عامرة وهبها الله صوتاً جميلاً وأداء شجياً.

وبعد ساعة وبعض الساعة يتفرق الجميع، ويذهب كلٌ في سبيله الذي يختار، وكان مضغ البيتل هواية شائعة في أوقات الفراغ في مثل هذا الوقت من النهار، وهو عادة سواحلية يمجها العرب سكان شبه الجزيرة العربية، ولكننا نحن الذين نشأنا بين الزنوج والمولدين اعتدنا عليها، رغم استنكار أهلنا الآسيويين لها، ومع هذا فقد كنا نمضغ هذا النبات خلسة، وفي غياب السلطان الذي حرّم تداوله.

* * *

وبمختلف الهوايات وأنواع النشاط تنقضي الفترة القصيرة التي تفصلنا عن الغروب. ويعلن عن غروب الشمس باطلاق الرصاص وضرب الطبول من قبل الحرس الهندي الخاص، وهذا الاعلان يعني أيضاً حلول صلاة المغرب، فيسرع الجميع لاداء هذه الصلاة الرابعة في موعدها المحدد لينصرف بعدها كل إما لزيارة الغير أو استقبال الزوار من الأخوان وزوجات الأخوة أو زوجات الأب، حيث يزجي الوقت بالمرح والسرور، بين أحاديث تدار ونوادر تروى وقصص تقرأ، أو بين الخياطة والحياكة والتطريز أو لعب الورق في بعض الأحيان (ولكن دون نقود أو رهان) أو بين الغناء والاستماع إلى عزف الزنجيات على آلات طربهن الوطنية، وتدور بين هذا وذاك فناجين القهوة وكؤوس عصير الليمون وصحون الفاكهة والحلويات.

وفي حوالي الساعة السابعة والنصف يرتفع الاذان لصلاة العشاء، وهي الصلاة الخامسة والأخيرة. ولكن هذه الصلاة لا تقطع اجتماعات القوم وأحاديثهم فقد أباح الشرع تأجيل أدائها إلى أي وقت قبل النوم.

ويبدأ وقت النوم في الساعة العاشرة للذين لم تتح لهم فرصة الزيارة أو استقبال الزوار، أما من عداهم فقد يمتد بهم السهر إلى منتصف الليل أو بعده بقليل.

وليس للأطفال عادة النوم المبكر أو في ساعة معينة، بل ينام كل في الوقت الذي يريد، بل وفي المكان الذي يريد، ثم يتولى العبيد نقله برفق وهدوء من ذلك المكان إلى فراشه المعتاد.

وقبل الذهاب إلى الفراش يصرف الخدم من الرجال للالتحاق بعوائلهم التي تسكن بجوار القصر، ثم تطفأ الشموع، في حين تبقى الفوانيس الفضية مضاءة حتى مطلع الفجر. وتذهب السيدات إلى فراشهن بكامل لباسهن وحليهن كما قلت ذلك من قبل، وتصحب السيدة ذات اليسار إلى فراشها وصيفة أو وصيفتين، وكما تعمل أصابع الوصيفات في الصباح الباكر على بعث الحيوية والنشاط في جسم السيدة الراقدة وايقاظها من سباتها اللطيف وأحلامها اللذيذة، فإن أصابعهن تعمل في هذه الساعة المتأخرة من المساء على بعث الراحة والاسترخاء في جسم سيدتهن حتى تستسلم لسلطان الرقاد ولذيذ الأحلام، وتنسحب بعدها الوصيفات إلى فراشهن.

وبعد فمن الخطأ الكبير القول بأنّه ليس لدى المرأة الشرقية ما تعمله طيلة يومها، فالصحيح أنها لا تعمل خارج بيتها لعدم حاجتها للعمل، وصحيح أنها لا ترسم أو تعزف على البيانو أو ترقص (كما هو مفهوم الرقص عند الغربيين) أو ترتاد حفلات الليل. ولكن هذه الأمور ليست هي كل الوسائل المتيسرة لقضاء الوقت، بل ان هناك وسائل أخرى غيرها. واذا كانت المرأة الأوروبية تمارس هذه الهوايات والأعمال بحثاً عن السعادة أو جرياً وراء اللذة، فنحن الجنوبيات سعيدات وراضيات بحياتنا، ولا نعرف هذا اللهاث المسعور وراء المال والملذات، ولا نقره ولا نرضى به، ولا يهمنا بعد ذلك أن تتهمنا المرأة الأوروبية بالتخلف والجمود.

* * *

واستكمالاً للحديث عن حياتنا اليومية لا بد لنا من تفصيل الكلام عن الطعام ومراسمه في قصر أبي في زنجبار. وكما سبق وقلت فإنّ وجباتنا الرئيسية كانتا اثنتين. ففي التاسعة صباحاً كنا نجتمع في البهو الكبير لنقبل يد الوالد. والقاعدة العامة أن يجتمع كل أنجال السلطان وأحفاده إلى مائدة الافطار حين يكون السلطان في القصر حتى بالنسبة لأولئك الذين يسكنون في بيوتهم الخاصة خارج القصر. ولا أذكر أن أبي ذهب يوماً إلى بيت أحد منهم لتناول الطعام.

ولم يكن لدينا - وربما كان هذا هو الحال في كل بيوت الشرق - غرفة خاصة للطعام، بل كنا نتناول وجباتنا إما في الشرفة الفسيحة أو في احدى صالونات القصر، حيث تنصب السفرة، وتصف عليها أصناف الطعام، والسفرة هي ما يقوم مقام طاولة الطعام وهي طاولة تشبه طاولة البليارد إلا أنها - أي السفرة - في ضعفي طول طاولة البليارد وفي ضعف عرضها. ولكنها أوطأ منها كثيراً إذ لا ترتفع عن الأرض أكثر من ثلاثة إنشات.

ومع أن بيتنا يحوي الكثير من الاثاث الأوروبي كالكراسي والأرائك والطاولات وحتى خزانات الملابس، إلا أننا رغم هذا كنا نتناول طعامنا على الطريقة الشرقية الصحيحة جلوساً على الأرض فوق السجاد أو الحصران.

وكانت أفضلية السن والمقام أمر واجب الاتباع بكل دقة وصرامة. فكان السلطان يجلس إلى صدر المائدة وإلى جانبيه أبناؤه الكبار حسب أعمارهم، ويليهم في طرف المائدة صغارهم ممن تجاوزوا السابعة من أعمارهم. وتحوي المائدة أصناف عديدة من أطباق الطعام تبلغ الخمسة عشر صنفا وأكثر. والرز هو قوام الطعام وسيد كل وجبة باستثناء الافطار، وتتنوع أشكال طهيه وإعداده تنوعاً لا حصر لها. وبالنسبة للحوم يفضل لحم الضأن والدجاج، وتقدم الأسماك بكثرة كما يقدم الخبز الشرقي والمعجنات والحلاوة. وخلافاً للطريقة الأوروبية فان الطعام يُصفّ على السفرة قبل أن يجلس إليها أي أحد، وهذه الطريقة تغني عن الخدمة، لهذا ينسحب الخدم إلى طرف ناء من المكان، ولكنهم يظلون متأهبين لتلبية الأوامر. وكثيراً ما يرسل السلطان أحدهم بصحن مختار من الطعام أو بقطعة من الحلوى اللذيذة إلى أحد أطفاله الذين لا يؤهلهم سنهم للجلوس إلى مائدة السلطان، أو لأحد المرضى من أفراد عائلته. وإني لأذكر ركني المفضل في بيت الموتني حيث كانت تصل إليّ فيه الأطباق الشهية التي كان يختارها لي السلطان، ومع أننا نحن الصغار كنا نأكل نفس أصناف الطعام الذي يقدم على المائدة للكبار، إلا أنه من دواعي الفخر والسرور للواحد منا أن يكون طعامه مما يختاره ويخصه به السلطان نفسه، وكان هذا العمل يدخل السرور والبهجة إلى قلب السلطان أيضاً.

وعند الجلوس على المائدة وقبل البدء بتناول الطعام يردد الجميع بصوت خافت ولكن بنبرات واضحة «بسم اللّه الرحمن الرحيم»، وعند الانتهاء من الأكل يردد المرء كلمات الحمد والشكر للّه كقوله: «الحمد للّه رب العالمين».

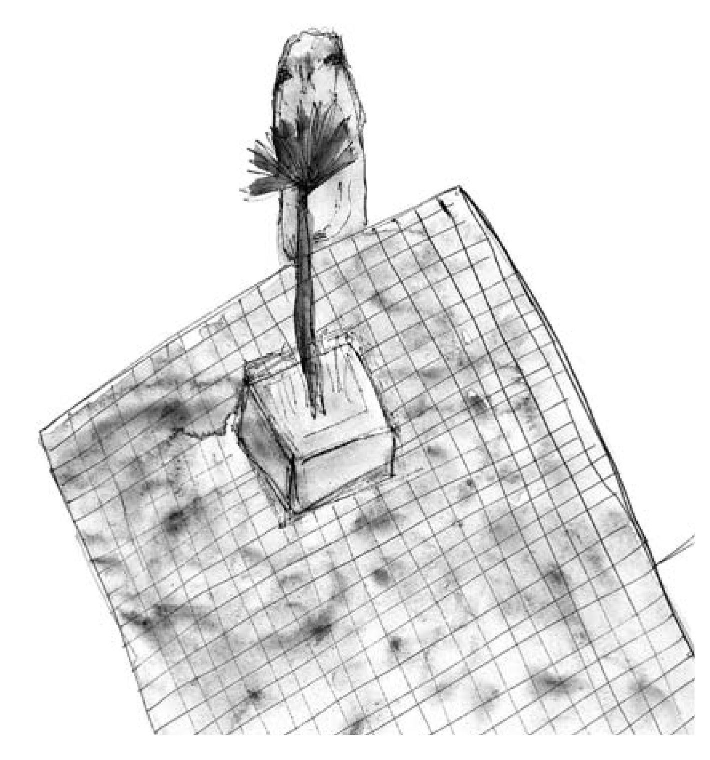
وكان أبي هو أول من يأخذ مجلسه على المائدة ثم يتبعه الجميع حسب أقدميتهم، وكان هو أول من ينهض عنها. وليست لدينا عادة تخصيص صحن لكل فرد بل إنّ جميع الاطباق - عدا الرز - تقدم في صحون صغيرة تُصفّ بانتظام في جميع أطراف السفرة، بحيث يستطيع أن يشترك كل اثنين بالاكل من صحن واحد. ولا تدار المشروبات مع الأكل، وإنما يقدم الشربات بعد الطعام. كما أننا لا نعرف عادة وضع الزهور أو الفواكه على السفرة، وليس من العادة تبادل الحديث أثناء الأكل إلا إذا أراد السلطان نفسه أن يتكلم. وما عدا ذلك فيرين الصمت على الجميع وهو أمر مريح على كل حال.

وقبل تناول الطعام وبعده، يطوف علينا العبيد حاملين أباريق الماء والطشوت الصغيرة والمناشف لنغسل أيدينا قبل الأكل وبعده، وذلك أن أداة الأكل الشائعة عندنا هي الأصابع، نادراً ما نستعمل الملاعق، أما الشوكات والسكاكين فلا نضعها على المائدة إلا اكراماً للضيوف الأوروبيين حين يتناولون معنا الطعام. وبعد غسل الأيدي بالماء نعطرها بماء الورد أو الكولونيا.

وبعد اتمام الوجبة بحوالي نصف ساعة يدور الخدم علينا بالقهوة المكاوية الأصيلة في فناجين صغيرة فوق صحون من الذهب والفضة. والقهوة في الشرق كثيفة لزجة، ولكنها خالية من الشوائب تماماً، وتشرب لوحدها بلا حليب ولا سكر. وتصب القهوة في الفنجان قبل شربها مباشرة، وهي عملية تحتاج إلى مهارة خاصة لا ينهض بها إلا قليلون، ويحمل المقهوي دلة القهوة المصنوعة من النحاس بيده اليسرى، في حين يمسك بيمناه فنجاناً واحداً موضوعاً في صحنه، ويسير إلى جانبه مساعده الذي يحمل صينية ملأى بالفناجين الفارغة مع دلة أخرى مملوءة قهوة. وإذا تفرق القوم فعلى هؤلاء المقهوية أن يدوروا عليهم فردا فرداً ويسقوهم هذا الشراب الأسود اللذيذ، والكل يعرف مقدار اهتمام الشرقي بالقهوة وعنايته بصنعها، فهي تحمص وتطحن وتغلى حين تطلب، ولذلك فهي جديدة دوماً، ولا تخزن القهوة المحمصة أو المطحونة أو المغلية بل ترمى جانباً أو تعطى للخدم.

ولا تختلف وجبتنا الثانية وهي الأخيرة التي تكون في حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر عن الوجبة الأولى في مراسيمها وترتيباتها، ولذا فلا حاجة إلى إعادة الكلام عنها.

وفيما عدا هاتين الوجبتين هناك أطباق من الحلويات وكؤوس العصير تدار على الحاضرين بين الحين والآخر في مجالسهم واجتماعاتهم.



وقبل المضي في سرد أحداث حياتي، أود أن أكتب بعض الفصول في وصف بعض وجوه الحياة الشرقية. لا أريد من هذا أن أعدّد أو أشرح كل عاداتنا أو تقاليدنا، وإنما الذي أهدف إليه هو تمكين القارئ الأوروبي من تكوين صورة صحيحة عن بعض الأنماط الهامة للحياة في الشرق.

وسأبدأ بأكثر المواضيع دقة وخطراً وهو الكلام عن وضع المرأة في الشرق. وانني لأحس ولا شك بخطر الكلام في هذا الموضوع. فان كوني شرقية الأصل والمولد والنشأة سيعرضني للاتهام بالتحيز إلى بلادي القديمة وبنات جنسي. ولهذا السبب فما أظنني سأنجح في تصحيح الأفكار الخاطئة عن وضع المرأة الشرقية وعن علاقتها بزوجها، وهي الأفكار الشائعة في أوروبا عامة وهنا في ألمانيا خاصة.

ولعل السر في شيوع هذه الأفكار الخاطئة هو التسرع في الأحكام والأخذ بمظاهر الأشياء فقط، واستقاء المعلومات من غير مصادرها الأصيلة. فعلى الرغم من شيوع المواصلات وسهولتها بين أوروبا والشرق، فما يزال الشرق في نظر الغربيين بلد الغموض والسحر وقصص الخيال والخرافات. وعلى هذا الأساس فهو يستهوي الكثيرين للكتابة عنه لغرض الربح أو الشهرة. فإذا حدث أن مرّ سائح ما مروراً عابراً في الشام أو تونس أو القسطنطينية أو القاهرة لا يتأخر عن الكتابة عن هذه الأماكن كتابة الخبير العالم بها، وكل مصادر علمه هو خدم الفندق الذي ينزل فيه أو أصحاب الحمير التي تنقله في تنقلاته. وليته يكتفي بما يسمع ويرى، بل إنه يطلق لخياله العنان فيضيف إلى كتابه أشياء خيالية لا أساس لها من الصحة والواقع ليضفي على كتابه مظهراً من مظاهر الجدة والأهمية، ويضمن له النجاح وسرعة الانتشار. ولا يمر وقت طويل حتى يصبح الكتاب مصدراً وحجة تستقى منه المعلومات وتُبنى عليها الأحكام.

وقد وقعت نفسي في هذا الخطأ أول وصولي إلى أوروبا بسبب انخداعي بظواهر الأمور، فقد خدعتني ـ وأنا أزور بعض العائلات أو أخرج معهم ـ علائم البشر والابتهاج تغمر وجوههم، فذهبت إلى الظن بأن الحياة العائلية في أوروبا أقرب إلى السعادة والهناء منها في بلادي. ولكن بعد أن كبر أولادي ولم يعودوا بحاجة كبيرة إلى رعايتي واهتمامي كما كانوا من قبل، ازدادت علاقتي بالعالم الخارجي، وكثر عدد معارفي من العائلات، ونفذت إلى دخائل حياتهم العائلية، فاكتشفت أنئذ مقدار الخطأ في أحكامي الأولى. وان حقيقة الناس والأشياء ودخائلهم وما يضمرون هو غير ما يبدون ويظهرون. فقد تعرفت على الكثير من الزيجات التي ظاهرها السعادة وباطنها شر أنواع العذاب. وقد انتهت بي ملاحظاتي المتكررة إلى أن نظام الزواج المسيحي لا يفوق النظام الإسلامي في شيء، ولا يحقق بذاته سعادة أكثر. والحقيقة التي انتهيت إليها والتي لا شك فيها أن السعادة العائلية والانسجام الزوجي لا علاقة لهما بنظم الزواج ولا بدين المرء أو معتقده أو تقاليده، وإنما يعتمدان أولاً وأخيراً على مقدار تفهم كل من الزوجين للآخر. فهذا العنصر وحده ولا شيء غيره هو سر السعادة بين الزوجين، وانعدامه بينهما هو سر الشقاء في حياتيهما.

وتجنباً للوقوع في الخطأ فانني أسارع إلى القول بأنني إذ أتكلم عن حال النساء في الشرق فأنا أتكلم عن معرفة تامة



بالأحوال في زنجبار وبصورة تكاد تقاربها عن الأحوال في عُمان، ومع هذا فاني أستطيع تعميم الأحكام لتشمل المرأة الشرقية بصورة عامة. ذلك لأن أحكام الإسلام الحقيقية تصدر من نبع أساسي واحد، وحيثما يسود الإسلام تتشابه الأحوال والأحكام باستثناء بعض المجتمعات التي غزتها فأفسدتها سفسطات الغرب المسيحي.

وأول ما أريد تصحيحه هو الفكرة الخاطئة التي تذهب إلى أن المرأة الشرقية تنزل في المجتمع منزلة أقل من منزلة زوجها، في حين أن الزوجة ـ وطبعاً فإنّ الجواري والمحظيات لسن موضوع الحديث ـ تساوي زوجها مقاماً وحقوقاً وامتيازات وأنّ منزلتها الاجتماعية محل التقدير والاحترام، ومن التقاليد العربية الأصيلة ـ وربما كان مصدرها الشريعة الإسلامية نفسها ـ عدم جواز زواج المرأة بمن ليس كُفئاً لها، أي من لا يساويها منزلة وحسباً. ولكن ما جعل المرأة الشرقية تبدو وكأنّ لا حرية لها ولا حول ولا قوة هو الحجاب وحياة العزلة. وحجاب المرأة أمر واجب شرعاً في كل بلاد الإسلام في الشرق، فلا يجوز للمرأة أن تكشف عن وجهها إلا لأبيها وأخوتها وأعمامها وزوجها وأبنائها ولبعض خدمها الخاصين بها. وكلما ارتفع مقام المرأة ومركزها الاجتماعي ازدادت هذه القاعدة شدة وصرامة. واذا اضطرت المرأة إلى الحضور أمام رجل غريب أو التحدث معه فعليها أن تحجب عنه وجهها وتغطي جسمها، ولها بهذا الشكل أن تخرج إلى الطريق العام إن شاءت. أما النساء اللواتي لا يملكن خدماً، وتضطرهن ظروف الحياة إلى الإكثار من الخروج إلى الشوارع فهن ـ نسبيا ـ أكثر تحرراً من هذه القواعد. ولو سألت إحداهن عن السبب لقالت لك أن هذه القواعد لم توضع للنساء الفقيرات. ويجب أن أعترف أن المثريات من النساء يحسدن الفقيرات على حريتهن في الخروج والتجوال، والأخيرات يكثُرن في عمان حيث لا تسمح لهن موارد بلدهن الفقير بامتلاك الخدم والعبيد.

على أن المرأة الثرية ليست محرومة من الخروج كليا، وإنما يجب أن يكون لخروجها سبب مقبول أو حاجة ملحة: فلها أن

تعود المرضى من أهلها وأقاربها، أو تحضر المآتم والأفراح أو أن ترعى تجارتها. ولعدم وجود المحامين في بلادنا ـ لحسن الحظ طبعاً ـ فللمرأة أن تبرز أمام القضاة، وأن تترافع أمامهم في قضاياها. والتقاليد الصارمة تمنع المرأة من الاسترسال في الانتفاع من هذه الاباحة، كما تمنعها من الاسترسال وراء ميلها الغريزي للتخفيف من مظاهر الستر والحجاب التي تبدو فيها بالشارع وكأنها دمية ملفوفة. ومع اعترافي بأن النظرة الشرقية في هذا الأمر كثيرة الشدة والصرامة، فاني أجد أيضاً أن تبرّج المرأة الأوروبية في لباسها وزينتها وهي تظهر في الحفلات العامة لا يعدو كونه هو الآخر تطرفاً ممقوتاً في الاتجاه المعاكس.

والمرأة الوحيدة أي التي لا عائل لها من أب أو أخ أو زوج أو ولد يستحقّ حالها الرثاء حقاً، فهي لعزلتها التامة بحكم الدين والعرف عن الجنس الآخر تفتقد رعاية الرجل وحمايته وارشاده، فتتعرض لمتاعب أليمة، وتقع فريسة خدمها وحاشيتها يبتزون أموالها بالغش والخداع. وكم من صديقة لي أقدمت على الزواج لا لسبب إلا للخلاص من هذا الوضع الأليم. وهكذا نرى أن عزلة المرأة الشرقية قد تكلّفها الكثير من المشاق، ولكني مع هذا لا أرى مبرراً لعواطف الاشفاق والأسى التي يبديها الأوروبيون تجاه ما يسمونه مأساة المرأة الشرقية. فالواقع أنها لا تعيش في مأساة، بل هي لا تشكو ولا تتذمر من حالها، فلقد ألفت هذه الحياة واعتادتها، وللمرء من دهره ما تعود.

ويزداد هذا الإشفاق بسبب تعدد الزوجات واضطرارها أن تقتسم حب زوجها مع أخرى أو أخريات. ولا جدال في أن الدين أباح للمسلم أن يتزوج أربع زوجات في آن واحد، وأن يتزوج الخامسة فالسادسة كلما توفيت إحدى زوجاته أو انفصل عنها بالطلاق. كما أباح له أن يحوز من الجواري والسراري ما يشاء وما تملك يمينه، إلا أنني في كل حياتي بالشرق لم أر أو أعرف رجلاً متزوجا من أربع نساء في أن واحد. فالفقراء من ا لرجال لا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً لضيق ذات اليد، والموسرون منهم يكتفون باثنتين على الأكثر، ويكون لكل منها بيت قائم بذاته مستقل عن الأخرى. عدا عن هذا فان بعض النسوة يشترطن على أزواجهن أن لا يشركوا معهن امرأة أخرى بالزواج أو الشراء ويحتفظن لأنفسهن بحق الطلاق من الزوج إذا خالف هذا الشرط.

وعلى هذا فالسائد عملاً في المجتمع هو الزواج بواحدة، ولكن إذا بدا لرجل ما أن يمارس حقه المشروع في الزواج بأكثر من واحدة، فالنتيجة تكون وبالاً عليه وكدراً لعيشه، بسبب عواطف الغيرة والبغضاء بين الزوجات التي يلهبها الدم الشرقي العاطفي الحار فيحيلها دوماً إلى مشاجرات عنيفة قاسية متكررة، والتي قد يدل تكرارها على أن المرأة الشرقية أكثر تعلقاً بزوجها وتفانياً في حبه من أختها الشمالية الباردة.

ومشاعر البغضاء والشحناء هذه أمر محمود في النتيجة رغم ما تسببه من إكدار وآلام، فكثيراً ما صدت أشجانها ومتاعبها الموسرين من الرجال عن التفكير في معاودة الزواج مفضلين العيش مع زوجة واحدة في راحة البال على الشقاء والعيش المنغص مع اثنتين أو أكثر.

وبعد فمن الواضح أن ما من رجل، وبالأحرى ما من امرأة تستطيع أن تجد عذراً أو مبرراً لتعدد الزوجات، ولكن ما هو حال الزواج بين المسيحيين وبين الأوروبيين المثقفين منهم؟ ولأضرب الآن صفحاً عن مزاولة تعدد الزوجات تحت اسم «مارمونيسم» وهي طائفة مسيحية صرفة تقوم على أرض مسيحية صرفة، ولنرى هل إن الزواج عند الأوروبيين هو نظام مقدس فعلاً؟ أليس من السخف في أكثر الأحيان أن نتكلم عن «زوجة» واحدة للرجل الغربي؟ صحيح بلا شك أن الشريعة المسيحية لا تجيز الزواج بأكثر من واحدة، ولنفرض جدلاً أنها على حق في ذلك. وصحيح أن الاسلام يبيح الزواج بأكثر من واحدة، ولكن أليس من الصحيح أيضاً أن التقاليد وواقع الحياة في الشرق قد خففت إلى حد كبير من انتشار هذه القاعدة، في حين أن الغربيين يتعمدون أثمين مخالفة تعاليم دينهم باتخاذهم الخليلات بالخنى والفجور؟ ولعل الفرق الوحيد بين المرأة الشرقية وزميلتها الغربية ان الأولى تعرف بوضوح وبالضبط من هي منافستها أو منافساتها وعددهن وشكلهن ووصفهن، في حين تبقى المرأة الغربية في جهل تام لهذا كله.

أما عن الرقيق والجواري، فلا يملكهن إلا ذوو اليسار من الرجال. وعدا عن هذا فالأمَة تُعتق إذا ما ولدت طفلاً، ولا يجوز بعد ذلك بيعها إلا إذا مات طفلها. ولا يلجأ الرجل إلى بيعها في هذه الحال إلا في القليل النادر عن قلىً أو إملاق. والجواري يكتسبن حريتهن بموت سيدهن، ويتمتعن بعد ذلك بمطلق حريتهن، ولهن أن يتزوجن من شئن، حتى ولو كان أخ سيّدهن زواجاً طبيعياً حراً.

ومن الأمور الباطلة الظن بأن الرجل العربي يعامل زوجه باحتقار وازدراء: فديننا الاسلامي يمنع ذلك منعاً باتاً، ويساوي بين الجنسين، واذا كان الدين قد منح الرجال حقوقاً أكثر من النساء فإنه في الوقت نفسه أوجب عليهم حمايتهنّ ورعايتهنّ. والمسلم يخاف اللّه ويرعى تعاليمه حتى آخر لحظة من حياته لأنه يؤمن بلقاء اللّه بعد الممات، ويأمل بثوابه ورضاه في الآخرة أيضاً، ولهذا فهو أحرص من كثير من الأوروبيين على رعاية نسائه وبناته طاعةً للّه واحتراماً لأوامره.

ومن الطبيعي أن نجد في المجتمع العربي كما نجد في كل مجتمع آخر بعض المنحرفين الذين لا يبادلون زوجاتهم الحب الكافي أو لا يقدّرنهنّ حق قدرهنّ. ولكني أستطيع أن أجزم عن وعي وإدراك بأنني سمعت هنا أكثر مما سمعت في الشرق عن أزواج ظاهري الرقة والثقافة لا يتورعون عن ضرب زوجاتهم في بيوتهم. في حين أن العربي يترفع عن هذا التعدي لأن شيوعه عنه يحطّ من قيمته بين الرجال. وليس الأمر كذلك مع الزنوج في بلادنا، فتبادل الضرب بين الزوجين علناً أمر شائع بينهم، وما أكثر ما تدخلت شخصياً أثناء إقامتي في المزارع في فضّ مثل هذه المشاجرات التي تتسم بالعنف الشديد والضرب المبرح.

وليس صحيحاً أيضاً أن المرأة الشرقية لا تملك إلا الذلة والخنوع أمام نزوات زوجها وأهوائه، فالواقع أنها تستطيع أن تشتكيه إلى أهله أو أهلها، وأن تشتكيه عند القاضي. وفي النساء ـ كما في كل أنحاء العالم ـ من تستطيع أن تستخلص حقها بنفسها. وإني أعرف صديقة لي في السادسة عشرة من عمرها رضيت بالزواج من أحد أقاربها ممن يكبرها في العمر كثيراً، وكان من دأب هذا الرجل أن يقضي نهاره وجل ليله خارج بيته مطلقاً لنفسه عنان الشهوات والاهواء، وقد وسوس له الشيطان أنّ زوجته الجديدة لن تملك من الأمر شيئا إلا الصبر والاحتمال، ولذلك فقد فوجئ مفاجئة قوية حين عاد في احدى الامسيات إلى داره ولم يجد فيها زوجه، وإنما وجد منها رسالة شديدة اللهجة. وكان من عادتي أن أزور هذه الصديقة في أي وقت أشاء ودون خبر مسبق لعلمي بغياب زوجها المستمر عن الدار بحثاً عن اللذات والنزوات، إلا أنها زارتني يوماً وطلبت مني أن أخبرها بمواعيد زياراتي مسبقاً لأن زوجها لم يعد يفارق الدار إلا إلى عمله في النهار ولساعات قليلة. ولما سألتها مندهشة عن سر هذا التحول المفاجئ أخبرتني بالقصة؛ وقالت أنه لما قرأ الرسالة لحق بها في دار أهلها نادماً وطلب منها الرجوع. ولما رأى اصرارها وعزمها على الرفض اعتذر منها، ووعدها بتحسين سلوكه... وقد فعل.

ولا بد لي أن أروي قصصاً أخرى عن حرية المرأة واستقلالها. ان العادة الجارية في بلادنا إذا ما التقى الزوجان أن يقبل كل منهما يد الثاني. وان يتناولا طعامهما مع أطفالهما، وتقدم المرأة بين ذلك بعض الأعمال الوديّة الطفيفة لزوجها، كأن تسقيه الماء إذا ما طلبه أو أن تعطيه سلاحه عند الخروج أو تخلعه عنه عند العودة. وهذه الأعمال الطفيفة تؤديها المرأة من تلقاء نفسها، ودون ما طلب من أحد أو إكراه عليها، ولكنها على تفاهتها تشيع الود والبهجة والرضى بين الزوجين.

أما الأعمال البيتية فالحكم المطلق فيها للمرأة. وليست هناك ميزانية مخصصة للمصروف البيتي، وإنما ينفق الرجل ما تطلبه المرأة، وحتى إذا كان للرجل زوجتان أو أكثر فلكلٍ منهن بيت منفرد تستقل بإدارته وحدها. أما الحدّ الذي تستطيع فيه المرأة أن تحافظ على امتيازاتها البيتية أو تزيد منها فأمر موقوف على شخصية المرأة وطباع الزوج، ومقدار التفاهم والانسجام بينهما. وأذكر أنني أقمت مرة دعوة عامة للسيدات في مزرعتي، ولكني لاحظت كثرة الغائبات عن الدعوة، وعلمت أن السبب في ذلك هو عدم توفر وسائل الركوب. وهنا عرضت عليّ إحدى صديقاتي أن ترسل حميرها وبغالها مع الخدم لنقل المدعوات. ولما سألتها ان تستأذن زوجها في الأمر أولاً أجابتني بأدب ولكن بشكل قاطع بأن تقرير مثل هذه الأمور يعود إليها فقط وأنها لا تستأذن زوجها فيها.

وأذكر أيضاً صديقة أخرى من صديقاتي في زنجبار حققت لنفسها استقلالاً أوسع في تدبير أمور البيت والتجارة: فقد سلّم لها زوجها بإدارة مزارعه وأملاكه، فتولت ذلك ودبّرته خير تدبير بحيث لم يعد يتدخل في شيء، بل ولم يعد يدري شيئاً عن الريع أو الايجار أو الدخل، ولم يكن يستنكف أن يأخذ منها مصروف يومه. وقد كان من حسن تدبيرها ووافر نشاطها أن أصبحا من أثرياء البلد المعدودين.

ومن حسن حظ المرأة العربية أن تربية الأطفال تقع على عاتقها وتتولاها بنفسها، سواء أكانت زوجة أم أمة. ففي حين تضطر المرأة الانجليزية إلى أخذ أطفالها إلى دور الحضانة كل صباح، وفي حين تضطر الفرنسية إلى إرسالهم إلى الأرياف حيث يتولى العناية بهم أناس أغراب عنها، فان المرأة العربية تتولى أطفالها ببالغ عنايتها المستمرة، فهي التي ترضعهم وترعاهم وتراقبهم في اللعب والأكل، ولا تدع أحداً منهم يغيب عن ناظريها حتى يشبوا عن دور الطفولة، حيث تجني بعد ذلك جزاء تعبها ثماراً حلوة من الحب العميق والاحترام الصادق بينها وبين بنيها؛ وفي هذا ما يعوضها بعض الشيء عن آلام تعدد الزوجات.

ولو قُدِّر لأحد أن يشهد علائم السعادة والابتهاج في نفوس

النساء الشرقيات وعلى وجوههن لأيقن في الحال ببطلان الإشاعات الكاذبة عن بؤس الشرقيات وذلهن وغير ذلك من نعوت العطف والرثاء أو الزراية والاستخفاف. ومرد هذه الاحكام - هذا إذا أحسنّا الظن بنيات أصحابها - هو النظر السطحي السريع، في حين أن الحكم الصحيح على الأحوال الاجتماعية يتطلب النفاذ إلى بواطن الأمور وأصولها، وهذا لا يتأتّى في زيارة عابرة لا تدوم - إن طالت - إلا بعض أجزاء الساعة.

وعلى الرغم مما يُشتهر به العربي من حب الضيف وكرم الوفادة فإنه ينفر ممّن يحاول التطفل على دخائل حياته وأسرار بيته. وخاصة إذا كان هذا المتطفل أجنبياً عنه في الجنس والعقيدة واللسان. وكثيرا ما كنا نستقبل في بيوت السلطان بعض الزائرات الأوروبيات. فكان الحديث مع الواحدة منهن يقتصر على غرائب الأزياء والثياب، فثيابها غريبة علينا، وثيابنا مصدر العجب والدهشة لها، ثم نقدم لها أطايب المأكول والمشروب حسبما تقتضيه الضيافة العربية، وبعد أن يرش عليها الخدم ماء الورد، تودعنا محملةً بهدايا الوداع كما هي العادة، وتخرج منا وهي ليست أكثر علماً بأحوالنا وطباعنا منها حين دخلت علينا، فهي قد كانت في قصر الحريم وشاهدت البائسات المحجبات من نساء القصر، وأعجبت بلباسنا الغريب وحلينا النفيسة وقدرتنا على التربع على الأرض بخفة ورشاقة... وليس أكثر من هذا. وحالها حال الأخريات ممن سبقنها أو جئن بعدها. فهي لم تتبسّط في الحديث معنا، ولم تنفذ إلى دخائلنا، ولم تر من البيت غير مكان الاستقبال الذي قادها الخدم إليه وأخذوها منه. فكيف يصحّ لزائرة مثل هذه أن تدعي العلم ببواطن الأمور والنفاذ إلى دخائلها ومن ثم إصدار الأحكام عنها؟

* * *

ولا بد لي من الاشارة إلى مظهر آخر من مظاهر الحياة الزوجية في الشرق قد يستغربه القراء في هذه البلاد، وهو ان الفتاة لا تفقد في الزواج اسمها العائلي ولا مستواها الطبقي، فزوجة الأمير إن كانت من أبناء الشعب لا تحلم في أن ترتفع إلى منزلة زوجها، فرغم رابطة الزواج بينهما تظل هي «فلانة بنت فلان»، وتظل تدعى بهذا الإسم. ومن جهة اخرى فاذا زوج أحد الأمراء أو أحد الشيوخ ابنته أو أخته إلى أحد خدمه، - ونادراً ما يحدث هذا - فإن نظرته إليه لا تتغير، فطالما كان الرجل عبده فسيظل عبداً لابنته كذلك. ومع أن الرجل لا يظل عبداً بالمعنى الصحيح، فإنه يظل بحكم العادة ينادي زوجه بصاحبة السمو أو «ستي». ومن العادات العريقة كذلك أن الرجل إذا ما جاء في حديثه على ذكر زوجته - وهو ما يفضل عادة أن يتجنّبه كلية أمام الرجال - فإنه لا يدعوها زوجتي وإنما يشير إليها على أنها «بنت فلان الفلاني» أو أم العيال سواء أأنجبت منه أم لم تنجب.

وكما يحدث في كل أنحاء العالم وعلى مر العصور، فقد يتعذر الوفاق بين طبائع الزوجين، وينجم الخلاف والشقاق بينهما، ويغدو استمرار حياتيهما معاً صعباً أو مستحيلا، فيلجأان إلى الانفصال بالطلاق، وهنا تتجلى حكمة الطلاق في الشريعة الاسلامية. فمن الأسلم والأفضل - دون شك - ولأي زوجين تباينت طباعهما واختلفت مشاربهما أن ينفصلا بهدوء وسلام من أن يظلا طول حياتهما مكبلَيْن بأغلال زوجية تعسة بائسة تعود على كليهما بالنكد والشقاء، وقد تدفع بهما إلى أعمال تخالف الأخلاق أو القانون.

والطلاق في الاسلام يبيح للمرأة أن تستعيد لنفسها كل ما تملك وتبقى حرة التصرف دون قيد أو رقيب. واذا طلب الزوج الطلاق فللزوجة أن تحتفظ بكل هدايا العرس وجهازه، ولكنها تفقد هذا الحق إن جاء طلب الطلاق من جانبها.

وبعد فأرجو أن يكون في كلامي هذا ما يثبت أن المرأة الشرقية ليست ذلك المخلوق المظلوم المضطهد البائس الذي لا حول له ولا مقام في الحياة، كما يحلو للناس هنا أن يكرروا ذلك دوماً. وليس أدل على بطلان قولهم من النماذج التالية لبعض نسائنا.

وأول مثل هي زوجة أبي عزة بنت سيف: فقد كانت لها السيطرة التامة على السلطان السيد سعيد، فما من شأن من شؤون البيت أو الحكم أو السياسة إلا وخضع إلى رأيها وهواها، وما كان أحد من أهل بيته يستطيع أن يطلب من السلطان شيئاً إن لم يتقدم بطلبه إليها أولاً وينال موافقتها عليه، وقد ظلت لها الكلمة العليا دون منازع طيلة حياة زوجها السلطان.

ويحضرني الآن مثل آخر هي ابنة أحد الضباط العمانيين التي جاءت واستقرت مع زوجها في زنجبار، وكانت قارصة اللسان حاضرة البديهة كثيرة المزاح والتنكيت، وأفظع من هذا كله أنّها كانت على جانب من القبح مخيف، ولكنها مع هذا كله كانت سليمة الطوية متينة الخلق. كان زوجها، دون شك متيماً بحبها ولهاً بها؛ فكان يتقبل نزواتها وأهوائها بصبر أيوب، وكان، مكرهاً أم راضياً - لا ينفك عن مرافقتها إلى كل مكان تذهب إليه، لا يوفر لنفسه وقت فراغ أو راحة حتى غدا وكأنه عبد لها.

وفوق هذا وذاك فهناك شخصية أخرى تنفي كل الأوهام الشائعة في الغرب عن «تفاهة» المرأة الشرقية، وهذه الشخصية هي عمة أبي التي ما زالت حتى هذا اليوم مضرب المثل في الدهاء والشجاعة والهمة. فقد ترك جدي حاكم عمان وإمام مسقط عند وفاته أولاداً ثلاثة هم أبي سعيد وعمي سالم وعمتي عائشة، وكان أبي هو الوارث للعرش. لكن بما أنّه لم يكن قد أتم التاسعة من عمره بعد، كان لا بد من تنصيب وصي عليه، لكن عمته - وخلافا لكل السوابق - أعلنت أنها ستتولى بنفسها حكم البلاد والوصاية على ابن أخيها حتى يبلغ سن الرشد ويتولى شؤون الملك. وقد صدم هذا القرار المفاجئ رغبات الوزراء الذين كانوا يريدون استغلال صغر سن أبي وضعفه للاستيلاء على السلطة واستغلالها لمصالحهم الخاصة، ولكنهم على كل حال لم يجدوا في نهاية الأمر بُداً من الطاعة والخضوع، وصار عليهم أن يفدوا إلى ديوان الأميرة الوصية كل نهار ليرفعوا إليها تقاريرهم عن شؤون البلاد ويتلقوا أوامرها حولها، وقد أمسكت الأمور بقوة وحزم - وراقبت الأشخاص والأشياء بعين يقظة ساهرة. وكان الويل كل الويل للمخاتل أو الكسلان من رجال الحكم والادارة. وقد نبذت قيود العرف، فكانت تكتفي بوضع «الشيلة» على كتفها حين تجالس وزراءها وتناقشهم في الشؤون العامة غير عابئة بكلام الناس ونقدهم فقد كان همها وتصميمها أن تنجز مهمتها بنجاح وإخلاص.

ولم يمض على توليها شؤون الوصاية إلا وقت قصير حتى تعرضت شجاعتها لامتحان عسير، فقد نشبت في البلاد ثورة هوجاء، وهو أمر مع الأسف كثير الحدوث في عمان. فقد نهض فرع من عائلتنا يريدون اغتصاب الحكم لأنفسهم وقد خيل إليهم لصغر سن أبي وخلو مركز الوصاية إلا من سيدة أنهم بالغون أربهم بسهولة ويسر. وفعلاً فقد جمعوا الجموع، واكتسحوا البلاد بالحديد والنار، وأعملوا السيف في رقاب من قاومهم من السكان حتى وصلوا في زحفهم إلى مسقط وضربوا حولها الحصار. وكانت مسقط منيعة التحصين، كثيرة السلاح، ولكنها تفتقر إلى العتاد الحربي. وكانت أيضاً قد امتلأت يوم ذاك باللاجئين إليها فراراً من زحف الثوار وتنكيلهم أو طلبا للأمان والنجاة فيها، فاشتدت الحاجة إلى الطعام. وما نفع الجدران السميكة والحصون العالية إذا ما شح الطعام ونفد العتاد!!

وهنا كشفت الأحداث عن معدن هذه السيدة: حكمة في الرأي، وصلابة في التصميم، ونشاطاً في العمل، حتى كسبت إعجاب الأعداء أنفسهم. ولم تكتف بتدبير الأمور من بعيد، بل كانت تشرف من كثب على التنفيذ بنفسها؛ فكانت تركب وحدها كل ليلة متنكرة بلباس الرجال لتتفقد أحوال الحاميات النائية المتاخمة لمراكز العدو، وكثيراً ما كادت أن تقع في أسره لو لم تنقذها أصالة فروسيتها وسرعة حصانها. وقد خرجت ليلة ما، وكانت حزينة منقبضة النفس، فقد سمعت ان العدو قد لجأ إلى الرشوة والمال يستميل بهما المدافعين عن حصون المدينة بغية احتلالها بالحيلة والخداع بعد أن عجزت قوته وجيوشه عن ذلك، فذهبت بنفسها تريد أن تمتحن ولاء ضباطها وجنودها. فالتقت هناك - وكانت متنكرة بلباس الرجال - بضابط أحد المواقع المهمة، وحاولت باعتبارها من «رجال» العدو إغراءه بالمال والوعود على أن ينفض يديه من الأميرة الوصية وينضم إلى معسكر الثوار. لكن غضب الضابط الشهم وغيظه أفرحتها وردت إليها معنوياتها، وان كان الحادث كاد أن يكلفها حياتها على أيدي أتباعها باعتبارها من جواسيس العدو ولو لم تكشف لهم عن هويتها.

وازدادت محنة مسقط واشتد البلاء عليها باشتداد الحصار وإحكامه: فقد نفد الطعام، وانتشرت المجاعة، وانقطع الأمل في أي عون يصل إلى المدينة من الخارج وران عليها جو من الكآبة واليأس، وهنا قررت الأميرة أن تقوم بهجمة أخيرة لفك الحصار، فتموت ميتة كريمة بدل أن تستسلم. وكان لديها من البارود ما يكفي معركة واحدة، ولكن لم يكن عندها معه الحديد اللازم. لذا فقد أمرت أن تجمع جميع المسامير في البلد، تخلع من الأبواب والصناديق ومن كل شيء، وأن يجمع الحصى بالحجم المناسب أيضاً ليكون حشواً مع البارود لقذائف المدافع والبنادق. كما جمعت كل ما هو مصنوع من الحديد أو الرصاص أو النحاس في البلد وصهرته إلى قذائف وطلقات وقنابل، لم توفر دون ذلك شيئاً، حتى الدولارات الفضية في خزائن القصر صهرتها طلقات للبنادق. وتم الأمر بسرعة ونشاط، وبعد أن تيسر لها هذا القدر من العتاد، بدأت بالهجوم المنتظر. وكان النجاح حليفها فيه. فقد أخذ العدو على حين غرة، فتفرقت جموعه في كل جهات الأرض مولية الادبار بعد أن ترك خلفه نصف جيشه بين قتيل وجريح وأسير... وسلمت مسقط! وعادت البلاد جميعها إلى حكم الأميرة دون منازع. واستمرت في تنظيم البلاد وادارتها حتى بلغ أبي سن السابعة عشرة فتسلم منها الحكم، وكان من أثر حسن ادارتها واستقرار البلاد ان استطاع أبي أن يوجه أنظاره إلى فتح أقطار جديدة وكان منها زنجبار، فنحن ندين إلى هذه الأميرة الكريمة بفضل وجودنا في زنجبار.

وكانت عمة أبي هذه امرأة شرقية!!!

الكلام عن الرق والرقيق من أشد المواضيع حساسية وأكثرها مدعاة لاختلاف الرأي هذه الأيام. وانني لأعلم مقدماً بأنني لا أستطيع أن أقنع جميع أصدقائي وقرائي بالتسليم بوجهة نظري؛ ولكنني مع هذا أرى من الواجب عليّ تبيان وجهة نظري هذه بكل صراحة وتفصيل. والغريب في الأمر هو الجهل السائد بين الناس حول الموضوع، فالكثيرون من المتحمسين له يجهلون عناصره الرئيسية، بل حتى اولئك المشتغلون بالموضوع فإنهم يتجاهلون دوماً حقيقة واقعة ناصعة وهي ان اثارة موضوع الرقيق واظهاره للوجود لم يكن سببه العواطف الانسانية عند الفرد الأوربي فحسب، بل كان للعوامل والألاعيب السياسية أثر كبير في بعث الأمر والتهويل به.

كنت ما أزال طفلة بعد، حين حل الموعد المضروب الذي حددته اتفاقية عقدت بين الانكليز وأبي السلطان السيد سعيد والذي يجب فيه حالاً ومباشرة تحرير عبيد جميع الرعايا البريطانيين المقيمين في زنجبار.

وكان هذا القرار شديد الوقع على الرعايا البريطانيين، وضمنهم الهندوس والبانيان، مالكو العبيد في زنجبار والذين اشتكوا منه مر الشكوى، وارسلوا إلينا زوجاتهم وبناتهم يطلبن منا الرحمة والعون. ولكن لم يكن في أيدينا أن نتدخل في هذا الأمر، وأن نعمل لهم شيئاً ذي بال.

وقد كان البعض من هؤلاء الرعايا البريطانيين يملك المئات من العبيد الذين يشغلهم في إدارة مزارعه، ومعنى تسريحهم جميعهم في يوم واحد توقف العمل في مزارعه وانقطاع موارده ثم دماره دماراً تاماً. وعدا عن هذا فقد كان من نتيجة قرار التسريح الكامل والمباغت ظهور مشكلة كبيرة هي تعكير الأمن في جزيرتنا الهادئة الجميلة التي امتلأت بغتة بالألوف من اللصوص والمتسكعين والعاطلين عن العمل. فقد كان معنى التحرير لهؤلاء العبيد المعتقين هو التحرر التام عن أداء أي عمل، ثم حرية النهب والسطو وتجربة قدرتهم على اغتصاب الطعام والسكن من الآخرين.

لكن مرارة واقعهم الجديد سرعان ما أيقظت هؤلاء الأطفال الكبار من نشوة أحلام الحرية والتحرر، فقد وجدوا أنفسهم ولأول مرة في حياتهم، بلا قوت ولا موارد البتة. وقد تخلى عنهم الجميع وبضمنهم الإنسانيون، رسل مكافحة الرقيق. فقد ظن هؤلاء أنهم قد أدوا أمانتهم، وأنجزوا رسالتهم فقد جاهدوا مر الجهاد لتحرير هؤلاء العبيد، ونجحوا في مسعاهم، فلم يعد لديهم ما يربطهم بهم أو ما يستطيعون تقديمه إليهم، باستثناء ما كانت تقوم به زوجاتهم ـ الانسانيات مثلهم ـ من حياكة الجوارب الصوفية السميكة وتقديمها للحفاة من سكنة خط الاستواء!. أما ما عدا ذلك فعلى حاكم البلاد أن يتصرف كما يريد مع هذه العصابات السائبة العابثة بالأمن والعازفة عن كل عمل.

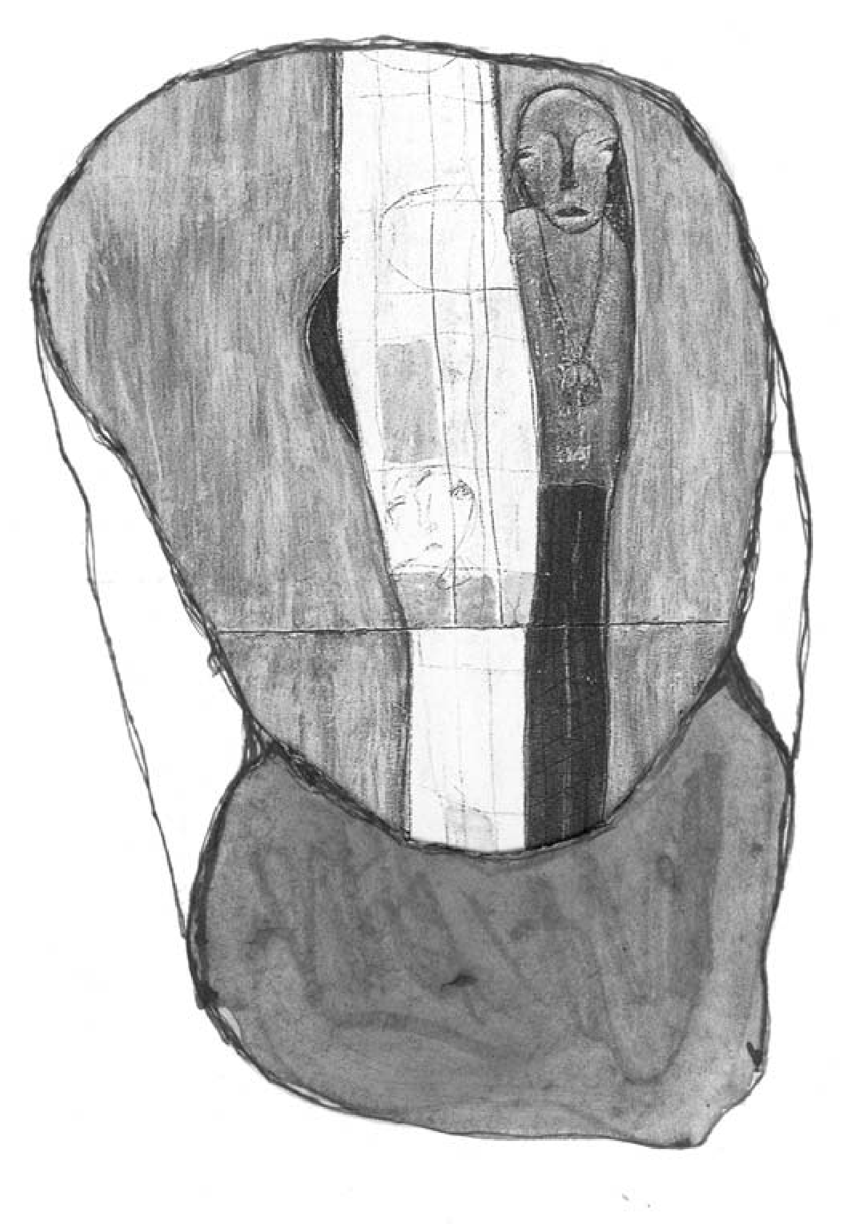
وأعود للقول ان منع تملك العبيد من هذا التاريخ المعين كان قاصراً على الرعايا البريطانيين فقط. والسبب كما كان يراه أبي هو أن بريطانيا تستطيع أن تمنع رعاياها عن مزاولة ما تعتقد انه خطأ، ولكنها لا تملك الحق في أن تفرض رأيها وارادتها على حكومة بلادنا، لهذا فقد ظل الرقيق، وما زال، سائداً في زنجبار وفي جميع البلدان الاسلامية الشرقية.

على أن وضع الرقيق في الشرق الاسلامي ليس كوضعهم في شمال أمريكا: فالواقع ان الاسلام حقق للرقيق حقوقاً وامتيازات ووضعاً قانونياً واضحاً حدد فيها حالات التملك وحالات العتق.

وهنا يجدر التمييز بين تملك الرقيق وبين تجارة الرقيق. والاخيرة هي الحافّة بالشرور والاسواء المثيرة للشكوى والضجيج. فقد دأب تجار الرقيق على التوغل في غابات أفريقيا وأدغالها لصيد العبيد وجمعهم. فيأخذون هؤلاء المساكين من بيوتهم ومن ثم يقسرونهم على قطع الطريق الطويل إلى ساحل البحر مشياً على الأقدام، فيموت العشرات منهم صبراً وعطشاً وإعياء، ويتعرضون لشتى المتاعب والأهوال، ولكن هذا ما يحدث أيضاً لتاجر الرقيق نفسه المرافق لهم، فيتعرض لمثل ما يتعرضون له من الأخطار والصعاب. لذلك فلا موجب أو مبرر للظن بأن التاجر يتعمد اختلاق المتاعب لقافلته، فان من مصلحته الابقاء على العبيد أحياء سالمين ليتسنى له بيعهم في الأسواق.

لا شك أن الضرب عمل غير انساني، والقسوة مهما تنوعت اشكالها عمل ممقوت يجب ان يشجب من الجميع وبكل قوة سواء أوقع على زنجي أسود جاهل في أواسط أفريقيا أم على أبيض متعلم يكدح في مجاهل سيبيريا.

لكن يجب أن نعلم أيضاً أنه لا يمكن تطبيق نفس قواعد الخطأ والصواب في كل مكان



لاختلاف الشعوب في تقييمها للأعمال والأمور. وعلى هذا تتغاير نظرة الشرقيين والأوربيين إلى الرقيق بتغاير تقاليدهما وعاداتهما.

فالرقيق في الشرق نظام اجتماعي قديم أشك في إمكان القضاء عليه كلية في تلك البلاد، وعلى كل حال فمن السخف التسرع في محاولة تغيير نظام اجتماعي عميق الجذور بجرة قلم، وبموجة حماس. وانما على الأوروبيين ان كانوا صادقين في نياتهم جادين في عزمهم أن يسيروا في هذا الطريق بكل بطء وحذر؛ وعليهم أولاً وقبل كل شيء أن يبدأوا بأنفسهم ليكونوا مثالاً وقدوة للغير، في حين نجد أن ما يحدث الآن هو العكس.

فغالبية الأوروبيين الساكنين في بلاد الشرق يشترون العبيد ويقتنونهم في بيوتهم ومزارعهم. وهم يخفون علم ذلك عن مواطنيهم في وطنهم، أو يبررون ذلك بحجة «البحث العلمي»، في حين يجب ألا يستعمل العلم مبرراً وذريعة إلى أمثال هذه الأعمال الدنيئة. ولا فرق من حيث المبدأ والواقع بين تشغيل الزنوج عمالاً في المزارع كما يفعل بهم العرب، أو تشغيلهم كولية كما يفعل بهم الأوروبيون ـ وان كان العمل الثاني في الحقيقة وواقع الأمر أصعب مراساً وأكثر مشقة.

وأكثر من هذا فقد برهن الأوربيون أنهم أقل انسانية تجاه الرقيق من العرب: فالعربي يعتق جواريه ولا يبيعهن إذا ما انتفت حاجته إليهن، في حين يعمد الأوربيون ـ المضطرون بدافع السفر إلى التخلي عن رقيقهم ـ إلى بيعه في الأسواق. وأذكر مرة أن الاستياء عم جزيرة زنجبار حين باع أحد الانكليزيين المسافرين خليلاته السوداوات إلى معاونه العربي سراً.

وفي مرة اشتكى القنصل الفرنسي جاره العربي لأنّه يسيء معاملة جواريه السود، ثم اتضح ان لهذا الفرنسي خليلة زنجية، وأنها وضعت له بنتا سوداء جميلة تولت رعايتها وتربيتها الجمعية التبشيرية.

فلا غرابة ـ وبعد هذه الحوادث وأشباه لها أستطيع أن أرويها ـ ان ينظر العرب إلى زوارهم المتحضرين بعين الريبة والسخط.

* * *

واذا ما خلُصت النيات حقاً واتفقت الآراء فعلاً على إلغاء الرقيق، فيجب السير بالأمر بكل تؤدة وحذر، وان تتخذ أولاً خطوات تمهيدية تهيئ الأذهان لهذا العمل وتقلل من نتائجه الضارة. فالغاء الرق أو تحرير العبيد معناه ترك الأفواج من هؤلاء الناس مشردين دون عمل، وبالتالي دون أكل ولا مأوى، ومعناه أيضاً القضاء المبرم على الزراعة في البلاد لرحيل العمال الزنوج عنها بعد التحرير. لهذا وذاك يجب أولاً خلق الشعور بالعمل والرغبة فيه عند الزنوج، ثم ادخال الزراعة الآلية إلى البلاد حيث تغني الآلة الواحدة عن عشرات العمال مع اعطاء أحسن النتائج بأقل الجهود؛ ويجب قبل هذا وذاك أن يدرك الناس الأغراض الانسانية من وراء تحرير العبيد، وانه لا يقصد به الاضرار بهم أو بمصالحهم أو معتقداتهم.

وطريقة العمل هذه تبدو لي أكثر انسانية وأكثر فعالية بل وأكثر جدية أيضاً من الأفكار المرتجلة المبتسرة كفكرة بناء كنيسة في المحل الذي كان يقوم فيه سوق النخاسيين. وهو عمل سطحي اعتباطي لان الكنيستين الموجودتين سابقاً في زنجبار واحداهما كاثوليكية والثانية بروتستانتية تشكوان من قلة الزوار، عدا عن أن هدم السوق لا يعني إبطال حركة البيع والشراء، اذ في الامكان اختيار مكان آخر قد يكون سرياً هذه المرة فيكون الضرر منه أكبر وأعظم.

والعرب، كبقية الشرقيين ـ متمسكون بتقاليدهم حريصون على كرامتهم لا يقبلون بأن تفرض عليهم آراء وأفكار جديدة لم يفهموها أو يتبينوا حكمتها، أو معتقدات تخالف معتقداتهم وتقاليدهم. ولكن المؤسف ان المسلم ما إن يختلف بالرأي أو النظرة إلى الأمور مع الأوربي حتى يتهم بالتعصب الديني والتخلف الفكري. وهذا أمر ظالم ومبالغ فيه.

ولا شك أن العربي شديد الحفاظ على أحكام دينه والتمسك بها. ولكن هذا لا يعني العصبية أي الجمود وضيق الأفق. وقد شهدت بنفسي روح السماح وسعة الأفق عند المسلمين أثناء عودتي إلى زنجبار بعد غيبة تسعة عشر عاماً عنها، وكنت قد خرجت منها مسلمة وعدت إليها مسيحية: ولهذا فأنا بنظر أهل بلدي خارجة مرتدة، ولهذا فانني أستحق منهم احتقاراً أكثر مما استحقه لو كنت مسيحية أصلاً. ومع هذا فقد قوبلت بالترحاب الشامل والود العميق والعواطف القلبية الصادقة.

اذن فإن دافع العربي إلى سلوكه ليس التعصب الديني وإنما الرغبة في حماية نفسه ومعتقداته وتقاليده ضد محاولات بعض الجهلة والتافهين ممن يدّعون تمثيل الفكر المسيحي والهادفة إلى مهاجمة أفكاره وتسفيهها.

ومن جهة أخرى فان بين الزنوج مَن لا يهتم بأي عقيدة أو دين، وهم إنما يعتنقون المسيحية بسبب ما تقدمه لهم الإرساليات التبشيرية من إقناعات مادية ويستمر اعتناقهم لها ما استمر إغداق العطايا عليهم، وقد شكى لي أحد رجال الدين الانكليز العاملين في ممباسة (وهي جزيرة إلى الشمال من زنجبار) بأن عدد تابعيه يختلف زيادة ونقصاناً باختلاف كميات المؤن التي ترد إليه من الوطن. ولهذ يجب العمل هنا أيضاً ببطء ودأب لكي نخلق عند الزنجي الشعور الديني قبل أن نحاول رفعه إلى أعلى درجات السمو الروحي.

ولا شك أن هناك من يعترض على آرائي هذه في الرقيق، ويرميني بالانحياز وعدم الموضوعية في نظرتي إلى هذا الأمر بسبب تربيتي العربية ونشأتي الشرقية. وإلى هؤلاء أقدم شهادات أوربية لا يرقى الشك إلى شدة أوروبية قائليها: فقد كتب الرحالة المستر ريشاد عام ١٨٨٠ من كوندا يقول:

«في ليلة ١٢ اكتوبر استيقظت على صراخ امرأة تحاول الدخول عليّ. وبعد الاستطلاع تبين لي أن هذه المرأة قد تخاصمت مع زوجها، واتلفت له بضاعة نفيسة. وانها لذلك وبموجب التقاليد المحلية تصبح أمة لنا. ولم يكن هذا هو الحادث الفريد من نوعه، ولم يكن من النادر أن تجد رجلاً يضيق بالحرية ويطلب الاسترقاق. وهذا برهان واضح قاطع على مبالغة وتحيز التقارير الكثيرة عن الرقيق والتي تصف أحواله بألوان سوداء أو ألوان لا وجود لها البتة.

ولا شك أن ظروف الحياة الجديدة للعبد أحسن بكثير من ظروف حياته الماضية، والرقيق عند العرب أحسن حالاً من غيرهم، فهم يعتقون إذا خدموا سيدهم باخلاص عشر أو خمس عشرة سنة. وهم لا يتعرضون للضرب والجلد من أسيادهم إلا في الحالات التي لا تنفع فيها وسائل العقاب الأخرى.

وقد كتب الانكليزي المستر جوزيف تومبسون في كتابه «رحلة إلى بحيرات أواسط أفريقيا» ما يلي:

«وفي هذه البلاد (زنجبار) يعم الحبور والهناء جميع طبقات الشعب، وهي بلاد مثالية حيث يستطيع المرء أن يعيش يومه بأربع شلنان فقط. ولا وجود في هذه البلاد للعبيد الجياع أو المعذبين. ذلك أنه إذا ارتفع إلى السلطان خبر قسوة أحد الأسياد على عبده، فانه يعتق العبد في الحال، ويحميه من شر انتقام سيده منه. ويبدو لي أن هذه الطبقة من الناس في هذه البلاد ينعمون بوضع من الراحة والاطمئنان، ويتمتعون من الحرية بعشرة أضعاف ما يتمتع به الألوف من العمال والعاملات في بلادنا.»

وقد لخص لي أحد الانكليز الذين عملوا لفترة طويلة في الأفريقية الشرقية، وعلموا عن كثب حقائق الأشياء، لخص لي حركة مقاومة الرقيق بمظاهرها المختلفة بأنها مجرد «دجل».

وفي الختام لا بد أن أذكر هنا واقعة أخرى هي أن «كوردون» الذي كان يوماً ما من أشد أنصار مكافحة الرقيق بدأ فترة حكمه الثاني في السودان بإلغاء جميع قوانينه التي أصدرها في هذا الخصوص. وهذا لا يعني إيمانه بضرورة وجود الرقيق في أفريقيا، ولكنه يعني إدراكه استحالة هدم التقاليد المتأصلة دفعة واحدة، وتفضيله العمل على تشذيبها وتحسينها بالتدريج.



عشت بعد وفاة أبي مع أمي وخولة في القصر الثاني سعيدة برفقتهما وحنانهما. وقد دام هذا الهناء ثلاث سنوات، ثم انتشر في البلاد وباء الكوليرا، وكان يطحن الناس طحناً، ويقضي على العشرات من سكان الدار يومياً، وفي احدى الليالي وكنا في عز الصيف لم أستطع سبيلاً إلى النوم في فراشي لشدة الحر داخل غرفتي، فطلبت من الخادمة أن تفرش لي على الأرض حصيرة لاضطجع عليها طلباً للبرودة والراحة.

وقد رحت في غفوة لا أدري أقصرت أم طالت، ولكن ليتصور القارئ مقدار فزعي اذ استيقظت من النوم فوجدت أمي الحبيبة عند قدمي تتلوى من الألم. فسألتها مرتاعة عما بها فأجابتني بأنين وألم بأنها قضت نصف الليل على حالها هذا في فراشها، واذ شعرت أن أجلها قد حان، فقد زحفت إليّ لتكون بقربي في لحظاتها الأخيرة.

إذن فالوباء الوبيل قد أصاب أمي العزيزة، ويوشك أن يقضي عليها. وزاد في ألمي وهلعي أنني لا أستطيع أن أقدم لها نفعاً ولا أدفع عنها ضراً. وظلت تقاوم الموت يومين ثم أسلمت روحها الطاهرة، وفارقتني إلى الأبد... وكان حزني عليها يفوق كل حد وكل تصور. فقد ظللت أحضن جثمانها متشبثه بها لم أحفل بانذاري من خطر العدوى، ذلك لأني كنت أتمنى على اللّه أن يأخذني إليه مع الراحلة العزيزة، ولكن المرض تخطاني، ولم يكن لي إلا أن أقبل بقضاء اللّه الرحيم الحكيم.

وهكذا أصبحت وفي سن الخامسة عشرة يتيمة الأم والأب، مثلي مثل سفينة فقدت دفتها فراحت تتخبط بين الأمواج، فقد كانت أمي لي نعم المرشدة ونعم الهادية؛ وكانت تجنبني المسؤوليات. الآن أقف وحدي أمام واجبات ومسؤوليات لم أعرفها من قبل، لا تجاه نفسي فقط بل تجاه الآخرين ممن عليّ أن أرعاهم وأعيلهم. وشكراً للّه تعالى الذي إذ شاءت ارادته أن يثقل كاهل امرئ بالمسؤوليات أعطاه القوة والجلد لتحملها. وعلى هذا فقد أعدت النظر في وضعي بهدوء ورتبت أموري بنفسي دون عون من أحد ما.

* * *

لكن الأمور لم تسر على هذا النحو من الهدوء وراحة البال: فما عتمت أن برزت في جو حياتي متاعب جديدة أخذت تتجمع وتتراكم حتى وجدتني منساقة دون اختيار مني إلى المؤامرة ضد سلطان البلاد أخي النبيل ماجد.

وقد بدا وكأن وفاة أبي كانت الاشارة المنتظرة لاندلاع نار الشقاق والخلاف بيننا نحن بناته وأبناءه، بدل أن تكون عاملاً للوفاق ولمّ الشمل بيننا. وبدا أن هذا الخلاف سيظل سائداً بيننا متحكماً في علاقاتنا، فقد يكون من الصعب حقاً إيجاد الوفاق بين ست وثلاثين أخاً وأختاً، تتقاسمهم جنسيات أمهاتهم المتعددة، وتجري في عروقهم دماؤهن المختلفة.

ولهذا فقد انقسمنا بعد وفاة أبي إلى مجموعات صغيرة متطاحنة متخاصمة فيما بينها خصاماً شديداً، ولا يزيد عدد أعضاء المجموعة عن الأربعة أو الخمسة أفراد. وقد حار أصدقاؤنا ومعارفنا في فهم سر هذه الانقسامات بيننا، ونالهم من رشاشها الشيء الكثير. فقد خسرنا أعز الأصدقاء وأحب الأقارب لمجرد أنهم حاولوا الحفاظ على علاقاتهم الودية مع الجميع، ولم يكن للحياد معنى في أذهاننا أو مكان في تصرفاتنا. فمن كان صديق عدوي أو لم يكن عدو عدوي فهو في الحالين عدوي على التأكيد.

وما يصدق على الأصدقاء والمعارف يصدق وبشكل أعنف وأقوى على الأخوة والأخوات: فأعز أخوتي وأقربهم إلى قلبي صار من أعدائي لمجرد أنه انتمى إلى جماعة غير جماعتي. وقد أعمانا الانفعال والحماس عن الرؤية والعقل، فانطلقت مشاعر المقت والبغضاء تجاه بعضنا البعض تزداد وتتفاقم دون أي وازع أو مانع. وانقطعت الزيارات الشخصية بيننا بل، وانعدمت اللقاءات العابرة وحل محلها نشاط محموم لطبقة من الجواسيس والمخبرين رجالاً ونساء ينقلون لكل فئة أخبار الفئة الأخرى وتحركاتها وأقوالها مقابل عطاء سخي ونوال كثير.

وانفتحت الأبواب والآذان والقلوب والجيوب أمام هؤلاء. فكانت العطاءات السخية تشجعهم على تلقط المزيد من الأخبار والإسراع بها إلى مَن يدفع أكثر من غيره. وكثيراً ما طرقوا علينا الباب بعد منتصف الليل لينقلوا لنا خبراً ملفقاً أو مبالغا فيه ولكننا كنا نتلقفه ونفرح به ونجزل من أجله العطاء، فاذا علمنا أن فلاناً سيشتري حصاناً أو داراً ذهبنا إلى البائع ودفعنا له أضعاف الثمن، واذا اشترت سيدة منا قطعة من الحلي أوصينا الصائغ أن يعمل لنا أحسن منها، وقد تسربت أخبار هذا الصراع التافه إلى خارج أسوار بيوتنا، فاستغل الباعة والتجار ذلك، وبدأوا يستغلون وضعنا هذا لصالحهم. وهكذا صرنا نتصرف وكأننا مجانين وعميان.

* * *

وكان ماجد وخولة في تلك الأيام على أحسن حال من الوئام، وكان هذا مصدر بهجتي وسروري لأنني أحب الاثنين أصدق الحب من أعماق قلبي. فكلاهما قد عاملني بعد وفاة أمي وكأنني طفلته الوحيدة. لكن علاقات الود بينهما اعتراها بعض الفتور بسبب أخينا برغش، حتى انتهى بهما الأمر إلى القطيعة التامة. ومع حبي وكلفي بأختي فيؤسفني أن أعترف بانها هي وليس ماجد كانت المخطئة والبادئة في القطيعة.

وبالنسبة لي فقد كنت في هذه الفترة في صراع داخلي مستديم: فأنا أعيش يومي كله مع خولة، نأكل ونشرب وننام معاً. ولكنْ لمّا بدأت تتجنب ماجد، وتظهر له العداء بمختلف الطرق دون ما سبب تصورت انني أستطيع أن أبقى على الحياد بينهما، وفي الواقع كنت أجرؤ أحياناً على الدفاع أمامها عن أخي البريء ماجد الذي كانت كل جريرته عندها أنه - وليس برغش - الجالس على كرسي الحكم في زنجبار.

ولكن المقت كالحب أعمى؛ فلم يكن من سبيل إلى تغيير رأيها في الموضوع. وقد مرّت عليّ شهور وشهور وأنا أتمزق بين اتجاهين وأتلظّى بين نارين لا أدري أيهما أختار، وإلى أيهما أنتمي، فكلاهما عزيز على قلبي. ولكن حين حلت اللحظة التي لا يحتمل فيها التأخير، وجدتني أنساق دون شعور أو اختيار إلى جانب خولة، مع عرفاني بأنها على خطأ وضلال. وهذا عمى العاطفة، فقد أعماني حبي لخولة عن الرؤية، وسلبني ارادتي وتفكيري، وجعلني أسيرتها في كل ما تقرر أو تقول، لا أملك لنفسي الخيار. ولكن هل في الحب من خيار؟ وهل نسمع لصوت الحق أو الضمير اذا ما علا صوت الحب وعربد؟ أو لسنا في سبيل الحب ومن أجله نتخلى عن مبادئنا وآرائنا وأفكارنا وأقدس معتقداتنا، كما تتخلى الشجرة الكبيرة عن أوراقها الذابلة في الخريف دون أن ينفعها جذعها القائم في الأرض أو يرد عنها بلاء؟

* * *

وكان ماجد بنبل طبعه وطيب خلقه قد كسب حب رعيته واحترامهم. إلا أنه كان كما نعلم عليلاً لا يستطيع أن يشرف بنفسه على كل شؤون الحكم، فتولى وزراؤه تصريف الكثير منها حسب أهوائهم واجتهادهم. وكان سليمان بن علي أبرز وزرائه وأكثرهم نفوذاً، وكان بارعاً خداعاً استطاع بالحيلة والدهاء أن يستحوذ على كل الأمور وأن يمد يده إلى كل شؤون البلاد، وأن يجعل كلمته هي العليا وارادته هي النافذة، وأن يحيل بقية زملائه الوزراء أصفاراً إلى اليسار. وكان أنانياً جشعاً مغروراً، وقد دفعه غروره وحبه إلى الظهور بمظاهر السيد في كل مناسبة تسنح له رغم عدم بلوغه السن التي تؤهله للاحترام، مما أثار عليه نقمة العرب الذين يقدرون للسن قدرها.

وقد دفعه الخيلاء والطمع إلى أن يخطب لنفسه إحدى أرامل أبي، وكانت شركسية اسمها فاطمة، وكانت في مثل عمر أمه. ولكن دافعه إلى الزواج منها كان حب الظهور والطمع في مالها. وكانت هي من قلة العقل بحيث رضيت به زوجاً لها، ولكنها بعد أن ذاقت منه الأمرّين ظلت تعض بنان الندم.

وقد استطاع هذا الماكر أن يزيد من نفوذه لدى ماجد، وأن يؤجج نار الفتن والشقاق بين أخوة السلطان وأخواته ليضعفوا ويذهب ريحهم، فيخلو لأطماعه الجو، ويزداد جاهاً ونفوذاً. وقد نجح في خطته، فنشبت بين أفراد عائلتنا المعارك، وازدادت الخصومات، وساءت أمور الحكم، وبدأت الرعية تتململ. وكان لدى ماجد لحسن الحظ وزير آخر هو محمد بن عبد اللّه الشامسي. وكان رجلاً واسع الذهن، نبيل المظهر والمخبر، غني النفس كثير المال، كريماً جواداً، وكان مخلصاً لسلطانه ولشعبه كارهاً لسليمان بن علي؛ فوقف في وجه المفسدين والمنتفعين، مما أثار نقمتهم عليه. ولم يكن ماجد ليثق بأحد غير سليمان، لهذا لم يستطع محمد بن عبداللّه الصمود واصلاح الأمور والتقليل من سلطة سليمان ونفوذه.

* * *

وفي هذه الأثناء تدخل أخونا برغش محاولاً أن يستغل لصالحه في نزاعه ضد أخيه ماجد مظاهر العداء والخصام بين أهل بيتنا، ومظاهر التذمر بين أبناء الشعب.

وسر العداء بين الأخوين ماجد وبرغش أن برغش هو المرشح للسلطنة من بعد ماجد الذي لم ينجب الا بنتاً واحدة. وكان من المعترف به أن برغش هو ولي العهد باعتباره أكبر الأخوة في زنجبار، ومن عادة أولياء العهد في الشرق أن يستعجلوا جلوسهم على العرش دون الالتفات إلى حقوق الجالسين عليه فعلاً، سواء أكانوا أخوتهم أم آباءهم، ولا يتعففون في سبيل الوصول إلى السلطة عن اللجوء إلى كل وسيلة ولو خرجت عن سواء الخلق الكريم وشرف الضمير وأعراف المجتمع. وانطلاقاً من هذه القاعدة، فان برغش الذي ساءه ان تفشل تدابيره للقبض على أعنة الأمور عند وفاة أبيه السيد سعيد، لم يفقد أمل الاطاحة بأخيه ماجد، فظل يدبر ويخطط في سبيل هدفه هذا.

* * *

وقد اتخذ سعيه منعطفاً خطيراً بعد انتقاله وأخته موجة من بيت الموتني واستقراره في المدينة، حيث صادف سكناه في بيت مقابل للبيت الذي أسكنه وخولة والذي كان يوماً ما مسكناً لفرسان الأميرة الفارسية شيزادة.

وبهذه النقلة دخلت حياتنا طوراً جديداً لا أستطيع كأخت أن أبوح وأفضح وقائعه التي كانت تجري في الخفاء - وان كان بعضها يستوجب التشهير - ولكنني أعف عن ذلك حفاظاً على سمعة العائلة. فعلى الرغم من كل ما فعله معي برغش من القسوة والإيلام، فانني لا زلت أؤمن بالمثل العربي الذي يقول إن مياه البحر كلها أضعف من أن تغطي على قطرة من دم القربى.

وما سكن برغش بجوارنا حتى نما الود والتعاطف بينه وبين خولة، فأصبح يقضي سحابة يومه في بيتنا لا يفارقنا إلا لماماً، وقد أهمل بيته وأخته موجة مما أغاظها وأثار ثائرتها، وأطلق لسانها بالنيل من خولة علناً وأمام الزائرين. فكانت النتيجة شجاراً حامياً بين الأختين، انتهى بالقطيعة التامة بينهما. وساءت الأمور بينهما حتى انتفى الهدوء والسلام بين البيتين. وكنت سعيدة لأنني لم أشارك في هذا النزاع ولم أتدخل فيه لكن بما أنني كنت موضع السر للأختين فقد انجررت إلى النزاع رغماً عني.

ولم تكن خولة محقة في معاملتها لموجة، ولكن خولة لم تكن في طورها في تلك الأيام: فقد كان برغش معبودها ومثلها الأعلى الذي لا تتأخر عن التضحية في سبيله بكل شيء. ولانها كانت بالنسبة لي كل شيء في حياتي، فقد تبعتها في هذا الطريق بفكر مغلق وعيون مسدودة - وان كنت في بعض الأحيان أحس بالعطف الصادق والتقدير نحو موجة: فعلى الرغم من غرورها فانني لا أستطيع أن أنكر لها استقامتها وسلامة تقديرها وحسن إدراكها، فقد كانت الوحيدة بيننا التي استطاعت أن تدرك عقم أعمالنا وسوء العواقب التي ستعود علينا نتيجة التآمر على ماجد، وكانت تنبهنا إلى ذلك وتنصحنا فيه دوماً.

وكانت شيمبو وفارشو ابنتا أخي خالد تسكنان بيتاً مقابلاً لبيتنا أيضاً. وكان حبهما لي عظيماً. وبسببي وعن طريقي امتد حبهما إلى عمهما برغش، وبخلا عصبته، وأصبحت بيوتنا الثلاثة المتقاربة في المدينة مركزاً خطراً للتآمر على ماجد.

* * *

وكان همّ برغش وهدفه الأول أن يجمع حوله أكبر عدد يستطيعه من رؤساء القبائل. والنظام القبلي نظام هرمي غريب في تماسكه وانضباطه. فالعرب منقسمون إلى عدة قبائل، والقبائل إلى عشائر، ثم إلى أفخاذ، ثم إلى بطون. وتختلف كل من هذه التقسيمات من حيث عدد السكان والأهمية. والفرد في القبيلة يطيع رئيسها طاعة عمياء ليس إلى نقضها من سبيل. فالاخلاص للقبيلة وطاعة رئيسها هما جوهر كيان العربي وأبرز خصائصه. وكل عربي يحمل إلى جانب اسمه اسم قبيلته، ويضع الاسمين في كل ورقة أو وثيقة يوقعها. فأنا مثلاً أوقع «سالمة الألبوسعيدية» والبوسعيد هو اسم قبيلتنا الصغيرة الباسلة.

لهذا صار من الطبيعي ان يسعى كل أمير إلى كسب أكبر عدد ممكن من هؤلاء الرؤساء ليكسب بالتالي الأعداد الضخمة من أفرادها عند الحاجة. ولكن كسب ولاء رئيس القبيلة ليس بالأمر الهين، بل لا بد له من مفاوضات ومساومات، وعطاء ومكافآت وعهود ووعود.

وقد استطاع برغش أن يجمع حوله بعض هؤلاء الرؤساء، حتى أصبح له بلاط صغير أثار الضجة والريبة في المدينة. فقد ظهر أن غالبية اتباعه هؤلاء من الانتهازيين ذوي السمعة السيئة؛ أما الرؤساء المحترمون ذوو السطوة والنفوذ فقد ابتعدوا عن برغش حين وضحت لهم خططه وأهداف مؤامراته، فحل محلهم جمع آخر من الانتهازيين الطامعين الأنانيين الذين لا همّ لهم إلا تحقيق أطماعهم وشهواتهم في المناصب والنفوذ دون ما نظر إلى مصلحة برغش نفسه إلا على أنها وسيلة لتحقيق غاياتهم المضمرة.

ولما تجمع عند برغش عدد كاف من هؤلاء، قرر البدء بتنفيذ خطته، وتتلخص بالقاء القبض على ماجد وتنصيب برغش سلطاناً على البلاد بدلاً عنه. وكانت الاجتماعات تعقد في بيوتنا، تعقد في جنح الظلام أو أواخر الليل، ويتسلل إليها المتآمرون. وكان يرأسها برغش نفسه، ويبحثون فيها احتمالات الحرب الأهلية ووسائل الاستعداد لها.

وسيطر على بيوتنا في هذه الفترة جو محموم من الريبة والذعر والتكتم وفقدان الثقة. فكنا نشك بأقرب الناس إلينا، ونتوهم بأن الناس تراقبنا وتتجسس علينا وتنقل أخبارنا. وكنا زيادة في الحيطة والكتمان نصرف الخدم إلى بيوتهم، ونقوم بأنفسنا بأشغال البيت إبعاداً لهم عن الاطلاع على أحاديثنا وخططنا. كما امتنعنا عن استقبال الزوار أو زيارة أي أحد.

وكان برغش يزداد انفعالا وحدة طبع يوماً بعد يوم. فلم يعد يطيق ضبط أعصابه وكتمان أمره، بل كان لحدة طبعه وشدة انفعاله أقلنا تكتماً وأكثرنا تسرعاً في الأقوال والأفعال، وأظهرنا عداء للسلطان.

وقد كشف النقاب عن نواياه العدوانية بانقطاعه التام عن حضور مجلس السلطان اليومي، أو البرزة التي سبق لنا الكلام عنها، وحضورها يومياً واجب على كل فرد من أفراد الأسرة الحاكمة، وعلى كل رجالات البلد، وعلامة من علامات الولاء والاخلاص للسلطان. وهذه سنة أستنها والدي منذ قدومه إلى زنجبار، وهي عادة قديمة في وطننا الأول عمان. إلا أن برغش أخذ يتغيب عن الحضور أكثر أيام الأسبوع، ثم انتهى به الأمر إلى القطيعة التامة، وهو تصرف أقل ما يفسر به انه عداء سافر للسلطان يستحق الجزاء والعقاب.

وقد أخطأ برغش في التسرع بالكشف عن نواياه، اذ نبه ذلك السلطان وأنصاره لأخذ الحيطة والحذر وتشديد الرقابة، كما فرق شمل أنصاره خوفاً من انكشاف أمرهم، فأضاع بذلك فرصة المباغتة في إلقاء القبض على ماجد، ومن ثمّ أفسد خططه جمعاء.

* * *

وقد أبى نبل أخي ماجد إلا أن يبذل معي آخر محاولاته ليثنيَني قبل فوات الأوان عن المزيد من التورط في الأعمال الطائشة التي كنت منساقة إليها.

ولأنه نظراً للظروف القائمة لا يستطيع زيارتي في بيتي بنفسه، ولأنني انقطعت منذ وقت طويل عن زيارة بيته، فقد أرسل إليّ إحدى زوجات أبي - من صديقات أمهاتنا والعزيزات علينا - للكلام معي في الموضوع. وقد توسّل إليّ بواسطتها أن أرجع إلى جادة العقل والصواب، وأن أترك العمل مع أعدائه وخصومه، وهو عمل لن يعود عليّ بالنفع حتى لو قدر لجماعتي النجاح في خطتها، لأنهم يستخدمونني الآن لحاجتهم إليّ وينبذوني حين تنتفي الحاجة وحين تتحقق مآربهم وتتكشف أطماعهم عند توزيع المغانم والأسلاب. وعند ذلك سأندم كثيراً على سوء فعلتي، ولات ساعة مندم! ثم أنذرني بانني إذا أصررت على جحودي وعنادي فانني يجب أن أتحمل مسؤولية ذلك كاملة، لأنه لا يستطيع أن يجعل بيتي بمنجاة من تناول المدافع إذا ما قذفت بيوتنا بالمدافع، أو يمنع طلقات البنادق من الوصول إلى صدري إذا ما اشتبكنا في معركة مع جنوده. ولكن مع الأسف فقد وصل انذار أخي ماجد متأخراً. فقد جندت نفسي لقضية خولة وبرغش، ولا أقدر عن النكوص عن وعدي لهما. وقد فارقتني زوجة أبي، والدموع تنهمر من عينيها. وبعد سنوات من هذا الحادث التقيت بها؛ فذكرتني بلقائنا هذا وبنبل ماجد نحوي وصدق تكهناته، ولكن السيف كان قد سبق العذل.

ولم تمض زيارة هذه الرسولة العزيزة دون أثر في الفكر ووخز في الضمير، وخشية من وسوسة البال أو انشغال الذهن او من الاتهام بأني ذات وجهين فقد قررت أن أتجنّب كل صلة أو لقاء مع ماجد وأن انصرف بكل جهدي وقواي إلى قضيتنا.

* * *

وكان من السهل على ماجد في هذه الفترة أن يأمر بالقاء القبض على أخيه برغش ورفاق السوء، ويلقي بهم في إحدى القلاع. لكن ماجد لم يكن يحب القسوة والعنف، وكان لا يزال يأمل أن يرعوي أخوه، ويعود إليه معتذرا إذ لم يجد ماجد سبباً لهذا العداء الذي يعلنه ضده أخوه برغش. كما كان يخشى أنه إذا عنف مع أخيه ان يؤدي ذلك إلى قطيعة تامة بينهما لم يكن يريدها ماجد. وفوق هذا أو ذاك فقد كان ماجد يريد أن يجنبنا نحن النسوة الأربعة المشتركات في هذه المؤامرة - الاهانة وعواقب الأمور.

لذلك فقد غلق ماجد عينيه وأذنيه عما يدبره ضده أخوه برغش ونحن معه، ولكنه تجاه تمادي برغش في كشف نواياه العدوانية ضد السلطان لم يجد بدّاً في آخر الأمر من فرض الرقابة على بيت برغش، على قلة جدوى هذه الرقابة، لأن الجنود الذين أوكلت لهم المهمة كانوا من البلوش، وهم على جانب كبير من الولاء الأعمى لعائلتنا، بحيث لا يمكن أن يفرطوا بأحد أعضائها. وكان المتآمرون يعرفون نقطة الضعف في جنود المراقبة، ويستغلونها أحسن استغلال. وكان الرجال معرضين للتفتيش والمتابعة، وأحياناً يلقى القبض على بعضهم، لذلك كنا نحن النساء خلافاً لكل الأعراف المحلية ننفذ المهام الخطرة في أنحاء المدينة إذ لا يجرؤ أحد على تفتيشنا أو ملاحقتنا. وكنا جميعاً نعمل ونكد في حركة دائبة وعمل مستمر وكأننا خلية نحل، وكلنا يسعى لاستكمال استعداداتنا وجمع مؤونتنا في مارسيليا مقر الثورة الجديد، وخاصة بعدما وصلت إلينا الأنباء بقرار الحكومة إلقاء القبض على المشبوهين من رجال حركتنا وإبعادهم خارج الجزيرة.

ومع أنني كنت أصغر النسوة المتآمرات سناً إلا أن معرفتي للكتابة أهلتني لمنصب «السكرتيرة العامة» للثورة - إن صح هذا التعبير. وكنت بهذه الصفة أقوم بكافة المراسلات مع رؤساء القبائل، واطلع على أسرار الاستعدادات والخطط. وكنت في سن يسمح لي بأن أحس بوخز الضمير وقلق الوجدان وأنا أصدر الأوامر لإعداد البنادق والبارود والرصاص لقتل

الأبرياء من أقرب الناس إليّ وأحبهم إلى قلبي... ولكن ما العمل؟ هل يمكن التراجع الآن؟ وهل يمكن أن أنكص عن وعدي لأختي خولة وأتركها وحيدة في ساعة الخطر؟ لا، لا يمكنني ذلك، لا عطفاً على القضية ولا ولاء لبرغش وإنما هو الحب لخولة.

كان برغش حبشي الأم، وكان لذلك حاد الطبع عصبي المزاج. ولكنه كان رجلاً ذكياً يفوقنا جميعاً بالدهاء والفطنة. وكان متكبراً مستبداً، وله شخصية آمرة. أما عن مقدار ما يتمتع به من حب وتقدير في عائلتنا فدليله الذي لا يخطئ أنّ ما من أحد من أفراد عائلتنا الكبيرة انضم إلى حركته غيرنا نحن الفتيات الأربع، وغير صبي واحد قاصر هو أخي عبد العزيز الذي لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره، والذي - وهنا يكمن السر - تتولى خولة القوامة عليه. ولعل السبب في هذه النفرة والكراهية له هو ما تسبب به من دفن أبي سراً دون فسح المجال لتشييعه تشييعاً يليق بشخصه ومكانته.

ولم يقدر لبرغش أن يعرف حقيقة عواطف الأهل تجاهه إلا حين رأى نفرة الناس من حركته.

ورغم شدة الرقابة فلم تفتر همتنا أو يقل نشاطنا، بل دأبنا على عملنا المستمر واجتماعاتنا المتوالية بنشاط أكثر، لكن بظروف أشد خطورة؛ حتى تم تحديد يوم الثورة. ولكن ما إن تم تحديد هذا اليوم حتى أحيط بيت برغش وفيه صاحبه بمئات الجنود مع الأوامر المشددة بقطع كل اتصاله له مع العالم الخارجي حتى يستسلم صاحبه باختياره. ورغم أن هذا الإجراء يعتبر ضربة قوية لآمالنا إلا أننا مضينا في جهدنا. وكنا ننتظر أن يحدث الشيء نفسه لبيوتنا، وهذا يعني القضاء على كل أمل لنا. ولكن الواقع كما نمى إلينا بعدئذ أن بعض الوزراء نصحوا أخي السلطان بمحاصرة البيوت الثلاثة، وهي كل مراكز الخطر والتآمر، لكن ماجد رفض هذه النصيحة لأنه لم يرد أن يعرض بيوت أخواته للاهانة والتشهير.

وحالما أحاط الجنود ببيت برغش خرجنا نحن المتآمرون والمتآمرات الستة إلى نوافذ بيوتنا اثنان في كل نافذة نتداول في الأمر، وكنا على وشك الانهيار والاستسلام لولا عناد برغش وصموده.

وفي هذه اللحظات قفزت إلى أذهاننا حقيقة مذهلة، وهي احتمال نفاذ الماء من بيت برغش. فلم تكن بيوت زنجبار آنذاك تعرف أنابيب الماء، وانما كان الماء ينقل ويخزن فيها. وقد خزن برغش كميات كبيرة من الماء في بيته، ولكن هذه الكميات لا تصلح للشرب بعد خزنها يومين أو ثلاثة أيام في الطقس الاستوائي الحار. وانقطاع المياه عن دار برغش معناه عدم استطاعته المقاومة أكثر، لذلك فكرنا في طريقة لنقل ماء الشرب إلى أسيرنا. وجادت قريحة احدى النساء عن فكرة هائلة وهي: عمل أنابيب من أقمشة أشرعة السفن وإيصال الماء بها. وسرعان ما جيء بالقماش وعملت عشرات الأيدي في خياطته حتى غدا صالحاً لنقل الماء ومع اطلالة الفجر كان الماء البارد يجري في بيت أخينا الأسير، ولحسن الحظ فقد كان الجنود يقفون على الباب الذي من جهة البحر فقط، فلم يروا ما كنا نصنع، أو لعلهم رأونا وغضوا الأبصار.

وبعد اعتقال برغش فقد وقع على عاتقنا عبء كبير، فاذا كنا قبلاً مجرد مشاركات فقد أصبحنا الآن محور العمل كله وعلى جهودنا الآن تتوقف نتائج العملية. ذلك أننا صرنا واسطة الاتصال الوحيد عن طريق النافذة بين برغش وبين أتباعه في الخارج. وحين حاصر العسكر بيت برغش، كان معه في البيت عدد كبير من الرؤساء فاحتجزوا معه. ولم يكن مقامهم في الدار مريحاً لانعدام حرية الحركة داخل الدار لسبب وجود موجة في داخله، وكان علينا أن ننقل رسائلهم إلى أتباعهم وأهليهم. وكان علينا الآن أن نغير خططنا كافة تبعاً لتغير معطيات الموقف. ولذا فقد تقرر أن يجتمع أنصار برغش في مقاطعة مرسيليا قرب العاصمة، وهي مزرعة تعود إلى ابنتي أخي خالد، حيث يتحصنون هناك.

ولم تكن الفكرة سيئة، ذلك أنّ مرسيليا يمكن أن تحول بسهولة إلى قلعة حصينة تضم بضع مئات من الرجال يمكنهم الصمود فيها والدفاع عنها أمداً طويلاً؛ ومن هذا المركز الجديد يمكن للحركة أن تتسرب إلى كل أنحاء الجزيرة، ومن ثم تطبق على العاصمة من جميع نواحيها. وعلى هذا الأساس بدأنا ننقل السلاح والعتاد والمؤن إلى هذه البقعة بجهد دؤوب استغرق كل قوانا، ولكنه انتهى بنجاح تام.

ولم يفكر أحدنا بأن يكون للثورة حساب خاص، بل كان كل منا يصرف من موارده الخاصة ما تقتضيه الثورة من نفقات السلاح والعتاد والجنود والمؤن. ولما تم نقل جميع الأشياء إلى مقر الحركة الجديد في مرسيليا اجتمعنا نقدح زناد أفكارنا في سبيل ضرب ضربتنا النهائية. وقد انتهى بنا القرار إلى وجوب اطلاق سراح برغش من أسره أولا، ونقله إلى مركز الحركة للاشراف بنفسه على قيادتها. ومع تقديرنا للخطر الكبير المترتب على مثل العمل، فإن الخوف لم يكن يعرف طريقه إلى قلوبنا المندفعة؛ ولذلك وضعنا خطتنا لهذا الغرض، وبدأنا بتنفيذها فوراً.

ففي أمسية لا تمّحي ذكراها من ذهني أبد الدهر، تركت وخولة بيتنا يتبعنا رهط من النساء. وفي الشارع التقينا حسب خطة مرسومة بابنتي أخي ومعهما حاشية من النساء أيضاً، وتوجه الركب إلى بيت برغش. وما إن وصلنا عتبة الدار حتى حدث ما كنا نتوقعه فقد منعنا الجند المحيط بالدار من الولوج إليها وأمرنا بالعودة دون أن يعرف هوياتنا. وكان لا بد لنجاح خطتنا من التصرف بجرأة واقدام، لذلك صحت بأختي خولة... «خولة دعينا نذهب إلى ضابط الحرس ونخبره بهوياتنا، وسيدعنا ندخل ولا شك»، وكانت هذه الفكرة - مجرد الفكرة بحد ذاتها - تعتبر خروجاً على العرف والتقاليد، لكن دقة الموقف لم تكن تسمح بالتردد والإحجام، وخطورة المهمة تبرر كل وسيلة، وإن خالفت اللياقة الأصول. وذهبت وخولة ودخلنا على الضباط في مقرهم، وفي لهجة صارمة ومؤثرة عرفناهم بهوياتنا وسألناهم كيف يبيحون لجنودهم أن يمنعونا من دخول بيت أخينا. وقد فتحت الدهشة عيونهم، وعقدت المفاجأة ألسنتهم، فلما نفذت كلماتنا إلى أدمغتهم، وأدركوا معناها أقبلوا إلينا بجميل الاعتذار ويتوسلون طلب الصفح والغفران منا.

ولقد سمحوا لنا بزيارة قصيرة، وأذنوا للموكب بالدخول. وقد أحسست بالخجل في نفسي وأنا أستغل طيبة هؤلاء القوم في سبيل غاية إجرامية سيدفعون هم ثمنها عقابا صارماً اذا ما انكشف أمرها.

وقد وجدنا برغش وأخته موجة في أشد حالات الذعر والاضطراب، فقد أبصرا في النافذة وصول موكبنا، وشهدا موقفنا مع الحرس وخشيا أن تفشل جهودنا في الحصول على إذن بالدخول، فننكص على أعقابنا ونتركهما لمصيرهما.

وكان قد سمح لنا بزيارة قصيرة جداً، وكنا نرجو أن نوفق بالخروج بأخينا الأسير من الدار، كما وفقنا بالدخول إليها. إلا أن دون خروجه مخاطر وأهوال. فمن المستحيل أن يخرج برغش من القصر علانيةً فهناك أوامر صريحة بمنعه وبإطلاق النار على كل من يحاول أن يخرق الحصار أو يخرج من الدار قسراً، ولا سبيل لنجاته إلا بالتنكر بملابس النساء. لكن المشكلة العويصة التي برزت أمامنا هي أن برغش بكبريائه ورجولته أبى أن يرتدي ملابس النساء ويهرب فيها. وكان الموقف صعباً وخطيرا، ويزيد من خطورته قصر فسحة الوقت الممنوحة لنا واحتمال وصول خبر دخولنا إلى الجهات العليا، فتأمر بمداهمتنا أو اتخاذ أي اجراء مشدد آخر يعرقل تنفيذ خطتنا. كنا في وضعنا ذلك كمن يقف على فوهة بركان لا يدري متى ينفجر فيبتلعه.

وبعد جهد كبير رضخ برغش لمطلبنا، وسمح لنا أن نضع عليه عباءة سوداء على أن نترك عينيه دون غطاء. وهكذا فعلنا مع الصغير عبد العزيز أيضاً. ووضعنا برغش وهو بكامل سلاحه - بين أطول امرأتين في الموكب لنخفي طوله الفارع، واتجهنا نحو الباب نتهادى ونتجاذب أطراف الحديث متظاهرين بالانشراح والحبور في حين كنا في الواقع نرتجف خوفاً وقلقاً خشية أن يشك الجنود فينا فينكشف أمرنا، وتكون الواقعة السوداء والموت الزوام. ولكن الجنود أفسحوا المجال لنا بالاكرام اللائق لنا ومررنا - ويا للحمد! سالمين، ونحن لا نصدق أننا اجتزنا هذه الأزمة، ونجونا من هذه الشدة.

وكنا قد كتبنا بخطتنا إلى بعض الرؤساء وطلبنا إليهم أن ينتظرونا وأتباعهم في وقت معين ومكان معين خارج المدينة، فاذا لم نصل إليهم في ذلك الوقت والمكان فمعنى ذلك تأخير تنفيذ الخطة وعليهم أن ينتظروا منا تعليمات جديدة. وكان المكان بعيداً عن المدينة، ويقع في مزرعة كثيفة نعبر للوصول إليها مزارع الحنطة والشعير. لذلك كان علينا أن نسرع في سيرنا، وأن نحث الخطى إلى ذلك المكان البعيد قبل فوات الوقت المحدود. وقد سرنا بداخل المدينة سيراً طبيعياً، ولكننا ما إن وصلنا ضواحيها حتى أطلقنا سيقاننا الرقيقة بأحذيتها المطرزة بالذهب والفضة نسابق بها الريح، ونقفز ونتعثر بها وسط ذلك الظلام فوق الحفر والحواجز وحقول القمح وسواقي المياه... وهكذا سرنا حثيثاً، حتى أخبرنا الخدم بوصولنا إلى المكان المقصود. وكان علينا نحن الفتيات أن نحتشم قليلاً. ثم سمعنا سعالاً خفيفا كان هو الاشارة المتفق عليها، ثم علا صوت بالسؤال: «صاحب السمو»؟ فأجابه برغش بالايجاب فارتفعت الهتافات «الحمد للّه»... «الحمد للّه» وهكذا وصلنا هدفنا سالمين.

وكان برغش طيلة الطريق متوتر الاعصاب، ظاهر الهياج والانفعال، ولم ينبس بكلمة أبداً. ولكننا ما إن صرنا بين أتباعه حتى خلع وأخوه الصغير عبد العزيز لباس التنكر، وإذ كان عليهما أن يواصلا السير ويصلا مرسيليا في نفس تلك الليلة فقد ودعانا مسرعين، واختفيا وأنصارهما عنا في جنح الظلام الدامس.

وظللنا فترة من الوقت وحيدين في ذلك القفز المظلم ننظر خلف الأشباح الراحلة بمزيج من الرهبة والإشفاق، وقد أنهك التعب أجسامنا، وهد قوانا. ولكن الليل كان قد تقدم بنا، وأن لنا أن نعود إلى بيوتنا، وكانت رحلة العودة هادئة بطيئة صامتة يتخللها الخوف من الظلام السائد الآن، والفزع مما سيأتي به ضوء

النهار، حتى إذا دخلنا المدينة تفرقنا جماعات صغيرة، ووصلنا إلى بيوتنا عن طرق مختلفة.

ولم يكن لنا طبعاً إلى النوم من سبيل، ولم يطرق أجفاننا البتة على شدة حاجتنا إليه ليخفف عن أعصابنا المشدودة توترها، ويعيد إلى أجسامنا المتعبة راحتها، وينسينا القلق وسوء الأفكار.

وفي غمرة الوحدة والهدوء في غرفنا بدأنا نتمثل ونستعيد شريط الأحداث المرعب، ثم تنتقل بنا الأفكار إلى ما سيأتي به الغد من كوارث وشرور أو بشائر وأفراح. وبدأت متاعب الساعات الأخيرة تفعل فعلها في أجسامنا ونفوسنا، فاذا كنا نستطيع إلى حد ما أن نحتمل القلق الفكري والتوتر العصبي فإن أجسادنا المترفة لا تستطيع أن تتحمل ذلك التعب الجسمي التي حفل بها هذا المساء، لهذا ونتيجة الخوف والأرق والأعياء بدأ أنيننا يتعالى وانخرط بعضنا بالبكاء من شدة الأوجاع، في حين أغمي على البعض الآخر منا من شدة التعب والإرهاق.

وكانت فوق هذا أفكارنا السود وضمائرنا المثقلة بالاثم تتخيل صوت حوافر الخيل أو صليل السلاح في كل صوت أو نأمة، وتتصور في كل حركة جنود الحكومة يقتحمون علينا دورنا ليأخذونا إلى حيث نلقى الجزاء العادل على ما صنعت أيدينا من سوء. وهكذا قضينا الليل الطويل بالقلق والأرق، ولا عزاء لنا إلا أننا أتممنا أصعب أهدافنا، ووهبنا أعز أصدقائنا الحرية والسلامة.

وارتفع أذان الفجر، وصليت صلاة الفجر مع خولة في غرفتها ـ وكانت عادتنا أن تصلي كل منا في غرفتها. ولأننا لا ندري ما سيطلع علينا به النهار فقد ودّعت خولة وودّعتني. وقد صدق حدسنا، فما حلت الساعة السابعة حتى جاءتنا الرسل بأسوأ الأخبار:

فقد علمت الحكومة بكل ما حدث أثناء الليل. فان أحد الجنود البلوش الحراس على بيت برغش قد تعرف عليه عند خروجه رغم تنكره، وقد منعه ولاؤه واخلاصه للمرحوم أبي أن يفضح ابنه ويشهر ببناته. فلم يخبر الحكومة بذلك خاصةً وأنه اعتقد أن قصد برغش من مغادرة الدار هو الفرار من زنجبار والابتعاد عن المشاكل والأخطار.

وقد روى الريفيون القادمون ببضائعهم إلى السوق في الصباح أنهم شاهدوا جموعا كبيرة من العرب المسلحين تتجه نحو مرسيليا مسرعة، فربط الناس بين هذه الأخبار وأخبار المؤامرة المنتظرة على سبيل الظن لا اليقين.

وعند هذا الحد وجد الجندي البلوشي أن من واجبه الآن إخبار الحكومة بما يعرف عن هروب برغش. وقد اهتمت الحكومة بأخباره، ولما سئل بالتحقيق عن أسباب تأخره في الادلاء بمعلوماته، ولماذا لم يتخذ ما يلزم من الاجراء ضد قافلة النساء، أجاب أنه يفضل أن يموت ألف مرة على أن يتسبب في أقل أذى لبنات السيد سعيد. ولا أدري ما حدث لهذا الجندي الوفي النبيل الذي أوقعه سوء أعمالنا في صراع بين ضميره وواجبه.

واذ وصلت الأمور إلى هذا المنعطف الخطر فلم يبق للحكومة بد من أن تضع في الحال حداً حاسماً لهذه الثورة السافرة. ولذلك فقد أرسلت بضع آلاف من جنودها إلى مرسيليا لقمع الثورة وتأديب الثائرين. وقد كنا نحن الثوار قد خططنا لحركتنا على أساس المباغتة أو المناوشات الطفيفة، ولم تخطر في حسباننا المجابهة الواسعة مع قوات الحكومة في ميدان القتال. لذلك فما إن وصل جيش الحكومة إلى مرسيليا حتى فتحت مدافعه النار على ذلك المكان البديع، فدكت قصره دكاً، ثم اشتبك جنوده مع رفاقنا بمعركة ضارية سقط فيها مئات الضحايا، وقد فرّ مَن فرّ من رفاقنا، واستسلم الباقون لقوة الحكومة.

وقبل أن تصلنا أخبار المعركة بالهزيمة، كنا نظن أن برغش في مرسيليا. ولكن أخته موجة أخبرتنا أنه عاد مدحوراً مهزوماً، ودخل بيته خلسة، وانه يمتنع عن رؤية أيٍّ كان. وقد علمنا أنه مصمم على معاودة الكفاح حتى النهاية، رغم انه لم يبق إلى جانبه غير أخيه عبد العزيز الذي أبدى رغم صغر سنه أحسن ضروب الشجاعة والاقدام، وغير نفر قليل من أنصاره القدامى امتلأت بهم داره، وكان يأمل أن يستطيع بهم أن ينفذ خطته التي فشل في انجاحها حين كانت تحت إمرته عشرات أضعاف عدد هؤلاء... ومع الأسف وعلى الرغم من خسائرنا في المال والرجال والأملاك والعبيد، ورغم نفرة أخوتنا وأقاربنا وكل أهلينا منا، فقد أعمانا الحماس والتعصب عن رؤية وقائع الأمور، وعن تصور الفشل الذريع الذي ستنتهي إليه خطط برغش.

وقد شاع بين الناس خبر عودة برغش، ومن الطبيعي ان يظن الجميع أنه ينوي الاستسلام إلى أخيه السلطان رغم أن هذه الفكرة لم تخطر لبرغش على بال. وقد أراد ماجد نفسه أن يحفظ لأخيه كرامته، ويسهل عليه أمر الاستسلام فبدلاً من أن يرسل إليه الجنود لاعتقاله، أوفد إليه سعود ابن أخينا الأكبر هلال ومعه رسالة بالوعد بالعفو والغفران ونسيان ما حدث شريطة أن يتعهد برغش بالإقلاع عن مثل هذه الأعمال مستقبلاً.

وكان سعود رجلاً محترماً ووديعاً محباً للخير، وكان أكبر من برغش سناً؛ فذهب بنفسه ودون حرس أو جند إلى بيت برغش تدليلاً على حسن نية السلطان وسلامة قلبه. لكن برغش رفض السماح له بدخول الدار، وطلب إليه أن يقول رسالته من الشارع، ولكن سعود رفض ذلك طبعاً وأصرّ على الدخول. وبعد طول انتظار فتح الباب مواربأ بما يكفي لمرور سعود بعسر ومشقة، وما إن صار في صحن الدار حتى وجد نفسه مضطراً إلى أن يتسلق السلم إلى الطابق الثاني حيث كان برغش وأخته ـ وأقول «يتسلق» وأنا أعنيها حرفياً: فقد كان السلم مسدودا بأنواع الحواجز والعراقيل: والطريقة الوحيدة للصعود هي أن يتسلق درابزين السلم. وما أنهى هذه المشقة حتى كان عليه أن يزحف إلى غرفة برغش من خلال باب صغير بعد أن رفعت من خلفه الصناديق الثقيلة. ولكن نفس برغش المغرورة لم تكتفِ بهذه الاهانة الجسيمة لابن أخيه ومبعوث السلطان، بل زاد عليها رفضه التام لعروض السلطان السخية. وتجاه هذا العناد والرفض لم يجد ماجد بداً من استعمال العنف والقوة ضد برغش وبنفس التصميم الذي أراد أن يتجنّبهما به وبذل في ذلك الكثير من الصبر والانتظار.

وقد نصحه القنصل البريطاني بوجوب وضع حد نهائي لهذه الاضطرابات التي طال أمدها واتسع مداها، ووعده بتقديم المساعدة له في هذا السبيل، والوقوف إلى جانبه حتى النهاية. وصدف أن كان في الميناء سفينة حربية بريطانية صغيرة، فتم الاتفاق أن يتحول مرساها إلى قرب بيت برغش لتقوم بانزال قوة من مشاة البحرية إلى البر للزحف على البيت؛ فاذا لم تؤد هذه الاجراءات إلى استسلام برغش، فعند ذلك تبدأ مدافع السفينة بالقصف الحقيقي لبيت برغش.

وقد استيقظت صبيحة ذلك اليوم وذهبت إلى غرفة خولة لأحييها تحية الصباح ـ وكانت غرفها تطل على البحر ـ فوجدتها في أشد حالات الاضطراب والهلع، وما إن رأتني حتى بدأت تلومني وتعنفني لغيابي، ثم شرحت لي الوضع واستطعنا من نافذة غرفها أن نرى الزورق البريطاني وبحارته.

ولم يكن في خطورة الحال شك هذه المرة. كما لم يكن عندي شك أن السبب هذه المرة هو عناد برغش العقيم، فلو أنه رضخ لمساعي أخيه السلطان لجنّب الجميع أحداثاً دامية جديدة لا يمكن أن تعود عليه بالنفع. ولما شرحت رأيي هذا لخولة انهالت عليّ لوماً وتقريعاً واتهاماً بأنني لم أكن مع القضية في حقيقة نفسي وأعماق قلبي.

ولقد أذهلني ما سمعته من خولة، فأجبتها بحدة وانفعال «وما الذي كان يجب عليّ أن أفعله لأبرهن على صدق ولائي للثورة؟ ألم أضحي بنفسي وأحملها على المكاره؟، ألم أضحي بمالي وثروتي؟ هل تأخرت في أداء ما طلب إليّ أداؤه؟ وهل ضاعت كل هذه التضحيات وامّحت وأصبحت الآن في موضع الاتهام والظنون لمجرد أنني في ميزان العقل والمنطق لم أعد أرى نفعاً في الاستمرار بهذا العمل الطائش؟»

وقد آلمني هذا الاتهام، ولعلني لم أكن لأكترث له لو جاءني من شخص آخر غير حبيبتي خولة، التي في سبيل حبها وإرضائها أقدمت على ما أقدمت عليه.

* * *

وفي أثناء حديثنا هذا، بدأ البحارة بإطلاق نار بنادقهم بغزارة وتصميم على بيت برغش، وقد اخترق الرصاص نوافذ البيت وكادت واحدة منها أن تصيب برغش نفسه. لذا فقد انسحب وأخته وأخوه عبد العزيز إلى القسم الخلفي من الدار ابتغاء السلامة والنجاة.

وما إن سمعت خولة أصوات الرصاص حتى تشنجت أعصابها، وانهمرت دموعها، وانهالت تلعن وتشتم ماجدا وحكومته والانكليز الواحد بعد الآخر بصورة شنيعة، في حين انتشر الرعب والفزع بين أهل الدار جميعها صغاراً وكباراً سادةً وخدماً: فدارنا تقع خلف دار برغش مباشرة، فنحن اذن معرضون لهذا الرصاص في النهاية، ومعرضون للدمار اذا ما بدأت المدافع قصفها. وقد فقدنا في غمرة الهلع والرعب الرشد والاتزان، ولم ندر ما نصنع بأنفسنا، وإلى أين نذهب. فكنا نهيم في أرجاء الدار كالمجانين على غير هدى: فمنّا من أخذت تودع الأخريات، وتسألهن العفو والغفران، ومنّا من بدأت تجمع متاعها وحليها تأهباً للفرار. وانخرط الجميع بالبكاء والنواح، وعلا الضجيج والصياح وامتزج بأصوات الرصاص، وشلّت قدرتنا على التصرف والتفكير.

وكان منا من انصرفن إلى الصلاة في ممرات القصر أو باحاته. فران عليهن الهدوء والسلام، ولم يعد يشغلهن الضجيج ولا لعلعة الرصاص. وسرعان ما احتذت الأخريات أمثولتهن، فأقبلن على الصلاة نشداناً لراحة البال وهدوء الأعصاب؛ فانجاب الهياج والتوتر، وحلّت محله سكينة مصدرها الايمان باللّه والتسليم إلى قضائه وارادته والثقة بحكمته وتقبّل قضائه وقدره بنفس مطمئنة راضية.

* * *

ولكن الخطر ظل يزداد بمرور الدقائق، وأصبح العناد حماقة

تؤدي إلى كارثة جمعاء. ولهذا فقد استطاعت خولة أن تحمل أخانا العنيد على القبول بالاستسلام. وخلافاً لكل التقاليد وقواعد اللياقة والأصول خرجت بنفسها إلى الشارع تعدو نحو بيت القنصل البريطاني لتنهي إليه الخبر، وتطلب إليه إيقاف إطلاق النار. وقد تساءل الكثيرون في حينه بعد هذا الحادث عن السر في ذهاب خولة إلى الانكليز بدل الذهاب إلى أخيها ماجد، وهل بلغ عداء خولة وبرغش نحو أخيهما السلطان حداً يفضلان فيه اللجوء إلى قوة أجنبية على طلب العفو منه مباشرة؟

ولا أعلم الجواب على هذا التساؤل، وقد شغلنا تداول الأحداث عن الحديث في هذا الموضوع.

وعلى كل حال فلم يكن للبريطانيين آنذاك النفوذ الذي لهم الآن في زنجبار وشرق أفريقيا. وكان تدخلهم في شؤون زنجبار المحلية محدوداً بنطاق ضيق كتدخل الأتراك أو الألمان في شؤون تلك البلاد. ولكن ابتداء من عام ١٨٧٥ ومن هذا العام فقط، تغيرت الأمور بشكل ملحوظ لصالح بريطانيا على حساب دمار شعبنا وإفقاره واسترقاقه. والفضل في ذلك للسياسة الانكليزية في مكافحة الرقيق!!

ولم تستطع خولة أن تعثر على القنصل البريطاني. لكن جنود البحرية أوقفوا اطلاق النار إثر سماعهم أصوات الاستغاثة من بيت برغش تنادي «الأمان... الأمان» ومشاهدتهم المناديل وأغطية الفراش البيض يلوح بها سكان الدار.

وهكذا تم النجاة من كارثة دموية دهماء. وكان ذلك قبل أن تصدر الأوامر إلى المدافع باطلاق النار بدقائق قليلة. ولكن لو أن مدافع السفينة قصفت بيت المتآمر على العرش في ذلك اليوم، لكان الجالس على عرش زنجبار اليوم رجلاً غيره ولما كان قدر لي المجيء إلى أوروبا.

ولَرُبَّ سائل يسأل الآن، ما كان عقابنا نحن النساء عمّا فعلناه وشاركنا في فعله من شر ودمار؟ والجواب هو لا شيء. فلو لم يكن على عرش السلطنة ذو الجناب العالي والقلب الكبير أخونا ماجد لنالنا ولا ريب شر كثير. ولكنه بحلمه ونبله أبى أن يحاسبنا عن كل ما قدمت أيدينا ضده.

ولمنع تكرار أمثال هذه المؤامرات فقد تقرر بنصيحة القنصل البريطاني نفي برغش إلى بومباي. وعلى هذا فقد نقل إليها على ظهر سفينة حربية، وذهب معه باختياره أخوه عبد العزيز. وقد زرنا برغش مودعين ذلك المساء، وبالنسبة لي كان الوداع الأخير لبرغش.

ولا شك أن البريطانيين أرادوا الاحتفاظ بالمرشح الجديد وخليفة ماجد على السلطنة ليتدرب على أيديهم، ويتعلم كيف يعمل لتحقيق مطالبهم حين يحين الحين. وقد فعل وأجاد. وقد قضى برغش في بومباي سنتين ثم عاد إلى زنجبار بكل هدوء، وظل كذلك حتى ارتقى ـ بعد وفاة ماجد عام ١٨٧٠ ـ عرش البلاد الذي طال انتظاره له وكفاحه من أجله.

* * *

حصاد الشر

انتهت مغامرتنا بالفشل الذريع، وانهارت آمالنا العراض، وانقشعت عن عيوننا براقع الغش والخيال، وارتطمنا بالواقع القاسي، وكان علينا أن نقطف ثمار ما صنعت أيدينا، وندفع ثمن سوء صنيعنا.

وكان الثمن غالياً من ناحيتيه المادية والمعنوية، فقد تضعضعت أمورنا المالية وخسرنا الكثير من مواردنا، كما خسرنا الكثير من خيرة عبيدنا القدامى المخلصين: فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من أقعده المرض أو شوهته المعركة فظلوا أمامنا شواهد حية تذكرنا بجحودنا الذي سبّب كل هذه الفواجع والآلام للأبرياء من الناس.

وكان الخطب أهون لو اقتصر حصاد الشر الذي زرعناه على الخسارة المادية فحسب، ولكن الأدهى والأشد مضاضة هو ما لحقنا، أنا وخولة وابنتا أخي خالد ـ من قطيعة تامة ونبذ تام من جميع أفراد عائلتنا وأقاربنا وأصدقائنا جعلنا في عزلة كاملة. وكان مما يزيد الألم وقعاً في نفوسنا هو شعورنا التام بأحقّيّة قومنا في تصرفهم هذا تجاهنا.

وفي وسط هذا الجو المحموم من الكراهية والبغض ظل ماجد وحده ذلك القلب الكبير والأخ النبيل الذي كانه دائماً. فلم تغيره الأحداث، وظل يرفض دوماً الأصوات الكثيرة المنادية بإيقاع العقاب بنا، وكانت محقة كل الحق في القاء تبعة الحوادث على كواهلنا نحن النساء. فلولا مشاركتنا ودعمنا لما استطاع برغش أن يصمد في مقاومته أو يقدم على أعماله التي أدت إلى سفك الدماء وقتل الأبرياء.

وكان ماجد يعترف بسلامة هذه الحجة وبصحة الوقائع، ولكن رجولته كانت تأبى عليه معاقبة النساء الغريبات، فكيف إذا كنّ بنات أبيه ومن لحمه ودمه!

وهذا كرم أخلاق ونبل من ماجد كنا أقل من أن نستحقه كما كان هو أعلى وأجلّ من أن يُتهم من أجله بالضعف.

* * *

وقد زاد بعض ضعاف النفوس على ذلك بالتجسس علينا ونق أخبارنا: إمّا تشفياً منا لعداء لنا أو تملقاً للسلطة. ولم نكن من جانبنا نهتم لأعمال التجسس هذه، فنحن أعرف من غيرها بأن قضيتنا انتهت إلى غير عودة. ولم يبق لنا ما نحرص على كتمانه أو نخشى انتشار خبره، لكن بقاءنا هدفاً للرقابة والشكوك قد أبعد عنا مَن تبقّى لنا من المعارف والأصدقاء، بل والخدم أيضاً؛ حتى بلغ الأمر حدّاً انقطع عنا معه نهائياً الباعة البانيان المتجولون الذين اعتادوا قبلاً أن ينسلوا إلى بيوتنا كل مساء يروجون لبضائعهم الهندية بالوقاحة والشطارة اللتين اشتهروا بهما.

وتبعاً لهذا فقد أصبحت بيوتنا خالية موحشة لا يطرقها أو يدلف إليها أحد قط، بعد أن كانت كخليات النحل تعج وتموج بالرائحين والغادين صبح مساء. مما جعل الحياة فيها على هذا المنوال صعبة الاحتمال.

* * *

ولم أكن منذ وفاة أمي قد زرت مزارعي الثلاث إلا نادراً ولمدة قصيرة من الوقت لا تتجاوز اليوم الواحد في كل مرة. ولكنني الآن وبعد ما نالني من التعب والارهاق وما مرّ عليّ من تقلب الأحوال ونفور الأهل والأصدقاء وضياع الجهد والآمال، قررت أن أبتعد عن الناس وأسكن إحدى مزارعي حتى تعود إليّ راحة الجسم والنفس والضمير. وقد اخترت لسكناي مزرعة كيسيمباني لأنّها المحل الذي كانت تفضله أمي الحبيبة والذي تمتلئ أرجاؤه بذكريات زياراتها المتكررة إليه. وتنفيذا لهذا القرار فقد انطلق بي فجر أحد الأيام حماري الأبيض الصغير يتهادى بين المزارع والحقول متجها نحو كيسيمباني. ولم أكن أجهل ما سينوء به عاتقي من المتاعب التي تواجهها المرأة العربية التي تعيش وحدها بسبب العزلة التامة المفروضة عليها عن عالم الرجال.

فالتقاليد القاسية في بلادنا تحرم علينا الكلام مع الرجال الأحرار وإن كانوا وكلاء أعمالنا أو نظار مزارعنا، ولذلك فان الأوامر والحسابات تروح وتجيء بواسطة العبيد.

ولم يكن من المألوف قط أن تستلم المرأة من ناظر مزرعتها كشف الحساب أو ميزانية العام. فعارفات القراءة والكتابة قلة نادرة جداً بين نساء بلدي، والأندر من ذلك أن تجد امرأة رأت في حياتها كشفاً بوارداتها ونفقاتها. فما دام الناظر يملأ الدار طعاماً ومؤوناً، وما دام فوق ذلك يدفع إلى سيدته بعض الدولارات في نهاية العام، فهذا حسبها وفيه الكفاية.

وهذه الواردات تأتيها من بيع القرنفل وجوز الهند. أما ما تنبته الأرض خلاف ذلك من حبوب أو خضار فمن العيب بيعه، وانما يترك لنظار المزارع يفعلون به ما يحلو لهم بعد أن يسدوا حاجة البيت من هذه المواد.

ولما كنت أسكن المدينة كان ناظر مزرعتي حسن بي علي يزورني مرة كل أسبوع أو اثنين ليدلي إليه بتقريره بواسطة أحد الخدم، ويتلقى عن طريقهم أيضاً أوامري وتعليماتي. وكانت لنا غرفة معدة لاستقبال هؤلاء الرجال، حيث يحلّون فيها للأكل والنوم والراحة قبل أن يعودوا في المساء إلى مزارعهم.

ولكن مقام حسن في المزرعة أصبح نشازاً بعد انتقالي إليها، فقد كان المسكين يتنقل من مكان إلى آخر بغية الاختفاء عني وعدم ظهوره أمامي. ولهذا لم أجد مفراً من نقله إلى مزرعة أخرى، وتعيين أحد عبيدنا الأحباش ناظراً بدلاً عنه. وكان الناظر الجديد ـ مرجان، رجلاً نشطاً ذكياً، وكان يعرف القراءة والكتابة.

وقد يسر لي ذهاب حسن من المزرعة حرية التجوال فيها دون ما شعور بمضايقة الناظر أو أحد غيره. وكنت أقضي ساعات نهاري بتفقد المزارع وحيواناتي الأليفة؛ وكنت أجد سعادة لا توصف في الترفيه عن الشيوخ والمرضى، فكنت أزورهم في أكواخهم الحقيرة، وأبعث لهم بوجبات الطعام من مائدتي الفاخرة، وكنت أعتني بأطفال العبيد ـ وهم في حقيقة الأمر نوع من الريع لمالك الأبوين ـ فكنت أجمعهم يومياً وأعين من يشرف على رقابتهم وتنظيفهم واطعامهم. وكنا نستعمل السدر للغسيل، وهو ورق شجر كبير اذا ما جفف وطحن وخلط بالماء أعطى رغوة كرغوة الصابون. ويظل الأطفال يلعبون ويمرحون حتى تعود أمهاتهم مساء إلى بيوتهن. وهذا أنفع للأطفال وللأم من حملهم على ظهور أمهاتهم طول النهار تحت حرارة الشمس المحرقة.

قد أفادتني حياة الريف الهادئ المنتظمة، فعادت إليّ راحة الجسم وصفاء البال وراحة الضمير. وطبقاً للأصول فقد بدأت نساء أعيان المنطقة يزرنني ويقضين في ضيافتي ساعات طويلة، وكذلك بدأ يفعل بعض أصدقائي القدامى في المدينة، وكانت زياراتهم قد تمتد أياماً أو أسابيع. ولأن كيسيمباني كانت تقع على مفترق عدة طرق، فقد كان عدد الضيوف العابرة لدينا كثيراً كل يوم. وكانت بجواري مزرعتان لاثنتين من أخواتي ومزرعة للسيد فيصل ابن أخي الأكبر هلال. وقد قلت عن هذا الرجل من قبل إنه امرؤ وديع طيب، ولكن الناس لم تنصفه. وكنت أول من عرفه على حقيقته، وقد تعلّق بي تعلّق الطفل بأمه، وكان يزورني يومياً.

وقد احتفظت بصلة منتظمة مع المدينة: فكنت أسيّر إليها رسولاً في صباح كل يوم ليعود لي بأخبارها في المساء. كما كنت أرسل إحدى خادماتي مرة كل الأسبوع لتعود إليّ بأخبار صديقاتي وقريباتي.

ولا شك أن الرجة التي أحدثتها ظروف تلك المؤامرة الفاشلة قد خفت حدتها الآن، إلا أن الحقد والنفور بين الأخوة والأخوات ما يزال قائماً، وهذا ما يدعوني إلى تأخير عودتي إلى المدينة وانقطاعي عن زيارتها.

وكادت سعادتي أن تكون كاملة تامة لو لم أفتقد شيئاً واحداً... هو البحر، الذي اعتدت أن أشاهده في كل لحظة من لحظات حياتي. فمزارعي الثلاث تقع كلها في البر بعيدة عن البحر، لذلك فقد قررت أن أشتري مزرعة قرب البحر مهما كلفني ذلك من جهز أو ثمن. ولم يكن العثور على مثل هذه المزرعة بالأمر السهل: فالذين يملكون أمثالها لا يفرطون بها لموقعها لا لإيرادها. ورغم الوعود التي كالها اليّ الدلال، فقد عاد إليّ يعلن لي عجزه عن العثور على ما أريد.

وما أن أبلغني الدلال أخباره المزعجة، حتى جاءتني إحدى صديقاتي وأخبرتني أن لابن عم لها مزرعة صغيرة على شاطئ البحر لا يستفيد منها لأنه يسكن المدينة، وأنها ستحاول إقناعه ببيع هذه المزرعة أو تأجيرها لي.

وفي اليوم الثاني قررت الذهاب لأرى بنفسي بوبوبو ـ وهذا اسم المزرعة الجديدة. وقد وجدتها جميلة رائعة، يتوسطها دار فسيحة جيدة البناء قائمة على شاطئ البحر بحيث تغسل الأمواج جدرانها صبح مساء؛ وتطل غرفه العليا على منظر رائع أخاذ للبحر، وترتفع في حديقته أشجار النخيل والجوز، ويجري فيها جدول صغير يذكرني بالموتني العزيز، وهو في حد ذاته ربح كبير في مثل جو بلادنا الحار. وإلى الخلف من الدار تقع ساحة صغيرة يقوم بها المطبخ وجناح الخدم.

وقد قررت شراء هذه المزرعة أو استئجارها. وبعد مفاوضات صعبة دامت أسبوعين ابتعت هذه المزرعة، وانتقلت إليها مع دواجني وماشيتي التي استغربت ولا شك وجودها على ساحل البحر بعد أن ظلّت في الأكياس والأقفاص فترة النقل من كيسيمباني إلى بوبوبو.

والظاهر أنها احتفت بالتغيير وتمتّعت كما احتفيت وتمتعت به. وكنت أجلس أتفرج عليها ساعات طويلة اذ أذهب أتمشى على ساحل البحر أُملي نظري بزرقته الصافية، وبمنظر السفن تمخر فيه



جيئة ورواحاً، وصيادي الأسماك بزوارقهم الصغيرة يمرون من أمامي تباعاً.

ولم يكن ينغص عليّ سعادتي الكاملة إلا فراق ابن أخي فيصل، فقد تألم لفراقي وحزن له أشد الحزن؛ فلم يكن له في هذا الريف من رفيق غير زوجة أبيه العجوز.

وكانت بوبوبو قريبة إلى المدينة، ويمكن الوصول إليها بسهولة براً وبحراً. وكان ثلاثة من أخوتي، وهم عبد الوهاب وحمدان وجمشيد يزورونني يومياً على ظهور الخيل أو على متن قواربهم، وكنا نقضي الوقت سوية بالأكل والشرب والحديث واللعب واللهو البريء.

وصارت حياتي الاجتماعية في بوبوبو أصخب منها في كيسيمباني، فما كان يمر عليّ يوم واحد إلا وتزورني فيه واحدة أو اثنتان ـ وربما يصل العدد إلى عشرة ـ من صديقاتي، وقد تستغرق الزيارة ساعات أو تطول أياماً.

* * *

وكانت اقامتي في بوبوبو خالصة السعادة والهناء؛ وسأبقى أذكرها على أنها أهنأ أيام حياتي، لكن لم يقدر لمقامي فيها أن يطول كثيراً.

قد جاءني أخي عبد الوهاب في أحد الأيام وحيداً وعلى ملامحه علائم العبوس، فاستغربت منه ذلك، وسألته عما يشغل باله فأجاب:

«إنني أحمل لك يا سالمة رسالة وددت ألا أحملها. ولكن احزري ممن؟». فلما الححت عليه بطلب الايضاح أخبرني أن قنصلا بريطانياً جديداً قد وصل البلاد فقلت له:

ـ «وما يهمني من أمره وهل أنت مرسل من قبله؟ تكلم ولا تراوغ.»

ولما رأى غضبي وهياجي رجاني الهدوء والروية وقال:

ـ «إنني أحمل لك رسالة من ماجد نفسه الذي يرجوك إن كنت ما زلت تحملين له الحب القديم أن تهبيه بوبوبو، فالقنصل البريطاني يريدها مقراً صيفيا له. وقد طلبها منه أمس.»

وكان هذا الطلب صدمة قاسية لي. ولو أتاني من أي شخص بالوجود لكان مصيره الرفض المباشر والتام. ولكن ماجدا!! هذا الأخ والسلطان الذي أعماني الطيش والجحود فتنكرت لأحلى الروابط والذكريات، ولم أقصر في الاساءة إليه والتآمر للقضاء على حياته وملكه،... ثم قابل كل ذلك بالصفح النبيل والعفو الكريم... هل أستطيع الآن أن أرفض له طلباً...؟ وطلباً مهماً بدا لي غالياً وعزيزاً، فهو في أعراف أسرتنا طلب بسيط لا تتجاوز كلفته بضع آلاف من الدولارات، لذلك آثرت التضحية بالمكان وعدم التفريط بأول فرصة تسنح لي لأُظهر الولاء لسلطاني وإعادة أواصر الصداقة والود القديم مع أخي.

وقد أنهيت قراري إلى أخي عبد الوهاب الذي عاد وأخبر به ماجداً. قد قررت أن أعود إلى مزرعتي كيسيمباني، إلا أن أخوتي الثلاثة عادوا إليّ صباح اليوم التالي، وأخبروني أن ماجد قد أمر عبد الوهاب بأن يشتري لي بيتنا في المدينة لأنتقل إليه. فلما أخبرتهم بقراري بالعودة إلى كيسيمباني ثاروا عليّ وتوسلوا إليّ أن أعود للسكن معهم في المدينة، ونقلوا إليّ رجاء أمهاتهم ـ وكلهن شركسيات ـ بالعودة أيضاً. وأضاف جمشيد بروحه الفكهة بأنه سيحرق المزرعة إذا ما عدت إليها.

وتجاه هذا التوسل والإلحاح تركت بوبوبو بعد أسبوع عائدة إلى المدينة، وسكنت البيت الذي اختاره لي أخوتي، ودفع ثمنه ماجد.

* * *

وبعد وصولي بأسبوع زارتني خولة في إحدى الأمسيات ومن دون سابق إنذار فاستقبلتها بالود والترحاب. ولكنها قابلتني بالتجهم والعبوس، ورفضت الجلوس في مقام الصدارة الذي قدمته لها، ففطنت إلى أن سفارتها إليّ عدائية ما في ذلك شك؛ ولم يفتني أن ألحظ على محياها وفي حركات يديها شدة الهياج والانفعال. وقبل أن تبدأني بالسلام بادرتني بنعوت الجحود والخيانة والنفاق، لموافقتي على بيع المزرعة للقنصل البريطاني أملاً في الحصول على رضا ماجد وعطفه وطمعاً في الانتفاع منه، وأنني لم أعد للسكن معها في بيتنا الأول ـ بيت الثاني ـ نفرة منها وتجنباً لسخط ماجد عليّ إلى غير ذلك من الاتهامات. وقد حاولت بكل هدوء وعطف أن أردها إلى هدوء المزاج والروية والتعقّل فذكرتها بأني شرحت لها ظروف القضية في رسالة بعثتها لها في نفس اليوم الذي وصل إليّ فيه أخي عبد الوهاب برسالة ماجد، وأن أخوتي هم الذين اختاروا لي هذا البيت وأسكنوني فيه، وأنني كما تعرفني هي نفسها أكثر الناس حباً لها وتعلقاً بها، وقد جر عليّ حبها وولائي لها المصائب والويلات، وأنني كما تعرف هي أيضاً أبعد الناس عن التملق والخضوع، وأقلهم جرياً وراء المنافع والأطماع.

لكن جهودي في تهدئتها وإقناعها ذهبت عبثاً، وأصرت على أني بتصرفي في قضية المزرعة قد خنت قضيتنا وأصحابها تملقاً واسترضاء لماجد «الملعون» كما كانت تسميتها، ثم ازدادت هياجاً وانفعالاً فصرخت بي وهي خارجة من منزلي: «اسمعي يا سالمة، ليس أمامك الا الاختيار بيني وبرغش وبين عبد الكفار الانكليز... مع السلامة.»

وخرجت في أشد حالات الانفعال، وكانت هذه آخر مقابلة لي في حياتي مع أعز خلق اللّه عندي: فلم أرَ خولة بعد ذلك مدة بقائي في المدينة، ولم تغير موقفها مني إلا بعد أن ضربت بيننا الأيام جدار الغربة والبين، وقصمت الأحداث ظهري بوفاة زوجي، فعادت رسائلها الحبيبة تصلني في بلاد الغربة، فتنزل على نفسي الحزينة نزول الطّلّ على الزهر في صيف بلادنا الحار.

* * *

وكنت قد انقطعت منذ أمد طويل عن لقاء ماجد وخديجة، وقررت أن أستمر في تجنب لقائهما خجلاً منهما لسوء ما قدمت ضدهما ودفعاً للشبهات التي قد تؤكد اتهامات خولة لي بالخيانة. ولكن القدر كان يخبئ لي مفاجأة لم تكن في الحسبان.

ولم تكن المفاجأة إلا زيارة ماجد لي على حين غفلة ودون موعد سابق!! فقد دخل الدار وحاشيته الكبيرة في أحد الأيام، فهرعت إلى استقباله كما تقضي بذلك أبسط قواعد المجاملة والآداب. وقد أقبل عليّ باسم الثغر، منشرح الأسارير، بشوشاً مرحباً من أعماق قلبه، قائلاً إنّه وان كان الأكبر سناً فقد جاء إليّ ليشكرني لإنقاذي له من ورطة كبيرة كانت ستحرجه مع القنصل البريطاني لو أني رفضت طلبه.

وقد طغت فرحتي بهذه الزيارة وبرؤية أخي ماجد على ما عداها من المشاعر والأحاسيس، فتمتمت بكلمات غير مفهومة شاكرة له حسن ظنه وزيارته، ثم تشعب بنا الحديث إلى مواضيع شتّى. وكان ماجد ينتقل من موضوع إلى آخر، ويتطرق إلى أشياء كثيرة من ذكريات الماضي ومشاغل الحاضر، لكنه لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى أحداث المؤامرة الأخيرة وعواقبها، موحياً لي بكل كرم ونبل أنه لم يعد يحمل لي عنها حقداً ولا غضاضة.

وقد افترقنا بعد ساعة كاملة قضيناها في خير حال من الود والوئام، وقال لي وهو يودعني على عتبة الدار:

ـ «أرجو ألا تبخلي علينا بالزيارة يا سالمة. فخديجة تنتظرك مشتاقة إلى رؤياك، كما أن عمتي عائشة ـ التي تسكن معنا الآن والتي تحبك كل الحب ـ تريد أن تراك أيضاً.»

* * *

ولم يكن من المعقول ولا المقبول في شريعة الأدب والمجاملة ـ ناهيك عن شريعة الأخوة والقربى ـ أن أمتنع عن رد الزيارة للسلطان، فكيف بتجاهل دعوته الصريحة! ولذلك فقد ذهبت إلى بيت السلطان، وجلست إليه وإلى أخته وإلى عمتنا، ولم أكن أدري أن قيامي بأقل واجبات اللياقة والمجاملة هذا سيكلفني غالياً جداً، فقد اعتبر عملي هذا جريمة وخيانة وأثار عليّ ـ وما يزال حتى اليوم ـ كل أنواع النقمة والحقد والبغضاء من نفس الأشخاص الذين بذلت حياتي ومالي وجهدي لإنجاح مؤامرتهم الرامية إلى خلع ماجد أو قتله وتنصيب برغش. لكن الحقد الدفين والبغض الأعمى كانا ـ ويا للأسف! ـ من أبرز صفات عائلتنا، ولاسيما تحت وطأة مثل هذا النزاع الحاد. فقد استمر الفريقان كما كانا سابقاً يكيد كل منهما للآخر ويدسّ له، ولكن بشكل أكثر خفاءً وبضجة أقل. فقد كان الصراع بينهما أوسع من أن يرأب، والكسر أكبر من أن يجبر وعواطف البغضا أقوى من أن تلجم؛ فلم يتورع كل فريق عن المجاهرة برأيه في الفريق الآخر.

والعربي صريح واضح بطبعه ولا يعرف المصانعة والمداورة التي يتقنها الأوروبيون: فهو عنيف قاس في عدائه، لكنه واضح غير مخاتل.

وقد منّ اللّه علينا بمناسبتين سعيدتين أنستنا بعض الحين خصوماتنا التافهة وعداءنا السخيف، وأعادت لحياتنا العائلية بعضاً من بهجتها السابقة وهنائها الغابر: وكانت المناسبتان زفاف اثنتين من أخواتي على أخوين من أبناء عمومتنا، فقطعت الأفراح والحفلات مسلسل الحقد والكيد بيننا لآن قصير.

وقد سعدت إحدى العروسين في زواجها، وعاشت مع زوجها حياة سعيدة هانئة، في حين لم تكتب السعادة للأخرى. ومن مفارقات الحياة أن الأولى لم ترزق طفلاً على شدة لهفتها وزوجها إليه،، في حين رزقت الثانية بالبنين والبنات.

* * *

والعربي أسير عاطفته دوماً: فكما ترى الحقد في أسوأ أشكاله عند العرب، ترى عندهم الصداقة والوفاء على أروع صورها. فمن أراد الصداقة الحقة في أشكالها: عمق وداد وصدق اخاء وايثار وطيب وفاء، فليذهب إلى الشرق. لا لأن هذه العاطفة وقفٌ على العرب فقط من دون الشعوب الأخرى، بل لأنها هناك تصدر عن معدن أنقى وعاطفة أصفى. وعلى الرغم من شدة التمييز الطبقي في الشرق فان هذه الفوارق الطبقية تذوب وتمحى تماماً أمام الصداقات الحميمة؛ وتبقى العلاقة بين الطرفين علاقة انسانية رقيقة وعلى قدم المساواة، لا فرق ان كان أحد الطرفين أميراً حرا أو سيدة من بنات السلطان، وكان الطرف الآخر عبداً رقيقاً أو أَمَةً مشتراة.

فقد كانت أصدق صديقات أختي موجة بنتاً فقيرة أخذتها أختي برعايتها، وأسكنتها معها في القصر؛ وظلت علاقتها بهذه البنت الفقيرة ـ والذكية ـ مستمرة حتى فرق الموت بينهما.

ولا بد لي أن أذكر بالعرفان والامتنان صديقةً لي من خدمي ظلت تلازمني إلى آخر لحظة من لحظات بقائي في زنجبار، وأصرت عليّ أن تصحبني في رحلة الغربة لو لم أمنعها من ذلك بالقوة والتهديد. وكانت هذه الخادمة من أوفى الصديقات، ومن أعزهن منزلة عندي.

وأبرز ما تتجلى ظواهر الصداقة في الشرق في وقت الشدة، فاذا سُجِن شخص ما مثلاً فان صديقه يشاركه الحبس أكثر ساعات النهار. واذا أُبعد شخص ما عن البلاد خرج معه أصدقاؤه أيضاً. ولا يدع الأصدقاء صديقاً لهم يحس بالعسر أو الحاجة بل يتنادون إلى جمع النقود وتقديمها له بشكل لا يجرح عزته وكرامته. وهم يفعلون هذا من تلقاء نفوسهم وفي السر... ذلك لأننا ننشأ في الشرق منذ الصغر على إكرام الجار والصديق.

في خلال تلك الأيام الحالكة الحافلة بالكيد والشجار بين أفراد عائلتنا، أسعدني الحظ بالتعرف على شاب ألماني كان ممثلاً لأحد المحال التجارية الألمانية في زنجبار، وهو الذي كتب له أن يكون زوجي في قابل الأيام، ولأن كثيراً من القصص الكاذبة واللغو الباطل قد رُوي عن هذا الموضوع أرى من الأفضل أن أوجز حقيقة هذه القصة في هذا المكان.

تمتع الأوروبيون في زنجبار أثناء حكم أخي ماجد بمركز اجتماعي لم يكن لهم من قبل، فكانوا يحلون ضيوفاً معززين مكرمين على أخي في قصره أو مزرعته. وقد أقمنا أنا وأختي خولة علاقات طيبة مع بعض العائلات الأوروبية في زنجبار تتجلى في تبادل المجاملات والزيارات قدر ما تسمح به عادات البلاد وتقاليدها. وكانت زيارات السيدات الأوروبيات تقتصر عليّ وعلى أختي خولة من دون نساء القصر.

وقد تعرفت على زوج المستقبل بعد عودتي من بوبوبو، فقد كانت الدار التي سكنتها مجاورة لداره، وكان سطح داره أوطأ من سطح داري. وكنت غالباً ما أرقب من نافذتي حفلاته الرجالية الباذخة التي كان يتعمد إقامتها في الأماكن التي يقع عليها نظري لعلمه برغبتي في الاطلاع على هذه الاحتفالات الغربية. وسرعان ما شاع في البلد خبر صداقتنا التي تطورت في النهاية إلى حب متبادل، فسمع بها أخي ماجد، ولم يحرك ساكناً، وكل ما تقوله الاشاعات في هذا الصدد عن عدائه لي أو سجني فهو محض خيال لا أساس له من الصحة.

وكان طبيعياً لي أن أحاول الخروج من البلاد سراً طالما يستحيل زواجي فيها، وقد فشلت محاولتي الأولى، ثم تهيأت لي الفرصة ثانية بفضل المسز «س» زوجة الدكتور والقنصل الانكليزي التي نقلتني في إحدى الليالي بزورق مع المستر «ب» ربان الباخرة الحربية البريطانية هاي فابر، التي كانت جاهزة للحركة فما إن صرت على ظهرها حتى غادرت الميناء على التو، واتجهت متجهة نحو الشمال حيث أوصلتني إلى هدفي المقصود وهو ميناء عدن.

وفي عدن نزلت بضيافة عائلة اسبانية تعرفت عليها في زنجبار، وظللت أنتظر بفارغ الصبر قدوم زوجي الذي لم يلحق بي إلا بعد عدة أشهر قضاها في زنجبار لتصفية أعماله في شركته، وفي فترة الانتظار هذه أخذت أتلقّى تعاليم الدين المسيحي، وما ان وصل زوجي حتى تم تعميدي باسم إميلي روث في الكنيسة الانكليزية في عدن، وتبعته في الحال مراسم الزواج طبقاً للشعائر الانكليكانية. ثم سافرت وزوجي إلى وطنه هامبرج، حيث استقبلنا والده وأهله بترحاب حار.

وفي الحال حملت نفسي على التكيف على العيش في المحيط الأجنبي الجديد. وبدأت بكل لهفة وحماس أتعلم كل ما يمكن ليساعدني في حياتي المستقبلة. وكان زوجي العزيز يراقب بكل متعة وسرور مراحل تقدمي في هذا المجال. يهمه بوجه خاص أن يرى انطباعاتي بالنسبة للحياة الأوروبية وقد سجلت انطباعاتي في مذكرات خاصة أرجو أن أتمكن من نشرها يوماً ما.

لكن حياتنا السعيدة الهانئة لم تستمر إلا فترة قصيرة. فلم يمضِ على استقرارنا في هامبرج إلا ثلاث سنوات وبعض السنة حتى أصيب زوجي العزيز الحبيب بحادث خطر أثناء قفزه من عربة الترام، وبعد ثلاثة أيام قضاها في ألم مبرح وافاه الأجل المحتوم. وهكذا قدر لي أن أبقى وحيدة في هذا القطر الكبير الغريب، ومعي ثلاثة أطفال لم يتجاوز عمر أصغرهم الثلاثة شهور.

وقد فكرت في العودة إلى وطني، ولكن القدر شاء أن يلاحقني بالفواجع: فقد توفي بعد شهرين أخي ماجد الذي عودني منذ الصغر على العطف والحنان؛ حتى بلغ من حلمه أنه لم يستنكر هروبي من زنجبار.

وقد أبدى برهاناً حساساً على عواطفه الأخوية الفياضة إذ أرسل لي قبل وفاته مركباً محملاً بأنواع الهدايا لتسلم إليّ في هامبرج. ولكني مع الأسف لم أتسلم شيئاً منها، وقد علمت بعد سنوات أن المركب وصل الميناء فعلاً ولكن أوامر ماجد لم تنفذ. وهنا يجب أن أقرر أيضاً أنه بعد رحيلي المفاجئ من زنجبار لم يضايق زوجي، بل تركه في حريته حتى أنجز أعماله وصفّاها وغادر البلاد لاحقاً بي إلى عدن.

وبقيت بعد هذا سنتين في هامبرج لم يفارقني فيها سوء الحظ: فقد فقدت مقداراً كبيراً من ثروتي، بسبب أخطاء بعض الناس الذين وثقت بهم. وأحسست بالنفرة من هذا المكان الذي شهد الكثير من أيام سعادتي وزاد في ألمي ازورار بعض أهل البلد عني، وعدم معاملتهم لي المعاملة التي تليق بي.

ولهذا انتقلت إلى دريسدن، حيث قوبلت بأطيب عواطف الصداقة في كل مكان. ثم سافرت إلى لندن، كما سأروي ذلك في الفصل التالي. وأخيراً وفي تاريخ متأخر تبينت رغبتي في السكن بهذه المدينة الجميلة الصغيرة «رودول ستات». وهنا أيضاً قوبلت بأصدق عواطف الوداد والاخلاص خلال سني إقامتي من قبل الأمير الذي عمل كل ما يستطيع ليجعل اقامتي هانئة سعيدة. وقد تحسنت صحتي في «رودول ستات» فقررت أن تكون برلين مقري ليستطيع أولادي متابعة دراستهم فيها. وهنا أيضاً وجدت أصدقاء كثيرين أدخلوا على حياتي البهجة والسرور. وقد أظهرت العائلة المالكة نفسها اهتماماً سامياً بي سأبقى أذكره لها بكل وفاء وعرفان ما حييت.



قد كانت السنوات الطوال الحافلة بالأحداث والتي عشتها منذ أن تركت وطني في الجنوب فترة كفاح ونضال مررت خلالها بأقسى التجارب وأعنفها مما لا يتمناها المرء لأشد خصومه عداء، كانت حصيلتها نفسيةً مُرهقة وجسماً متعباً.

ولقد ساعدتني أول الأمر بنيتي القوية على احتمال الشدائد والنوازل، كما ساعدتني على احتمال قسوة الجو الشمالي الذي لم أعتد عليه من قبل.

لكن تعاقب المشاكل والصدمات هدّ من كياني، وأضرّ بصحتي، فكان لا بد لي من تغيير الجو، وبهذا عادت إلي منذ سنتين فكرة اصطحاب أولادي في زيارة للوطن الأول.

وقد حدثت ابنتيّ في الأمر: فحذرتني احداهما من مغبّة تكرار محاولة هذا الأمر الذي لم يعد علينا في السابق بطائل، في حين شجعتني الأخرى على المضيّ في تحقيق هذه الفكرة.

وقد بدأت العمل فعلاً من جديد بعزم واستبسال، ولقيت من السلطات الألمانية كل عون وتشجيع. ولكن رغم هذا وذاك فان الامر قد طال وتعقد حتى أوشكت أن أفقد الأمل منه من جديد.

وحين شارفت على اليأس أو أوشكت وصلت إليّ على غير انتظار رسالة عاجلة من وزارة الخارجية الامبراطورية تطلب إليّ الاستعداد للسفر إلى زنجبار في موعد قريب. وكانت هذه الرسالة بالنسبة لي كأنها البشرى أو العيد، فلا عجب إذا ما طار صوابي فرحاً واستخفتني النشوة والانفعال. فالحمد للّه على توفيقه وهدايته وشكراً لامبراطورنا العظيم المحبوب وحكومته الرشيدة اللذين سأبقى وأولادي نذكر فضلهما بالامتنان العميق والعرفان بالجميل.

ولا حاجة بي إلى سرد تفاصيل الاستعدادات اللازمة فهي أمر معروف لكل من جرّب أمثال هذه الرحلة الطويلة المدى، كما لا لزوم لتكرار القول عن الجوانب السياسية لهذه الرحلة، فقد أوفتها بحثاً الصحف الصادرة تلك الأيام.

***

وفي اليوم الأول من شهر تموز عام ١٨٨٥ بدأنا رحلتنا الطويلة من برلين نحو «بريسلو» ثم «ڤيينا» ومنها إلى «تريست» التي وصلناها في اليوم الثالث من الشهر ومنها أقلعت بنا الباخرة «ڤينوس» في اليوم نفسه. وكان الطقس رائعاً، والبحر ساكناً، فكانت رحلتنا هادئة ممتعة. وكانت بهجة الأطفال بما يشهدوه تفوق الوصف والبيان، وكذلك كانت بهجتي: فلم أتحرر من القلق والهم وأشعر براحة البال التي افتقدتها مع الأسف طيلة السنوات الأخيرة إلا بعد أن مخرت بنا الباخرة عباب اليمّ.

وتوقفنا صبيحة اليوم الخامس من الشهر في جزيرة كورفو حيث أتيح لنا القيام بجولة قصيرة وأن نتمتع برؤية أحلى مشاهد تلك الجزيرة الرائعة، ثم سارت بنا سفينتنا فمررنا على «أثينا» في جنوب اليونان ثم على «كانديا» ومنها اتجهنا صوب الاسكندرية في مصر.

***

وما أن وطأت قدماي أرض الاسكندرية، وصرت بين مساجدها ومنائرها ونخيلها، حتى طغى عليّ شعور غامر بالشوق والحنين للأهل والأوطان، شعور لا يعرفه إلا من كابد مثلي الغربة عن بلده هذه السنين الطوال، وشوق لا يُحسّ به إلا من عانى الظروف المنحوسة التي عانيتها! فها هي عيناي تكتحل برؤية الجنوب العزيز بعد غياب دام تسعة عشر عاماً مليئة بالأوصاب والهموم وبلوعة الذكرى وحرقة الشوق والحنين. قضيت أكثر أيامها ولياليها الباردة أجالس موقد النار في بيتي.

فمع أني أصبحت مواطنة ألمانية من سكان هذا الشمال القارس البرد، ينوء كاهلي بالواجبات العديدة المتباينة التي تقوم بها ربات البيوت الألمانيات، إلا أنني خلال هذه المدة كلها كنت أعيش بأفكاري ومشاعري في الجنوب... بعيداً بعيداً جداً عن المكان الذي أسكن وأعيش فيه. فما من تسلية أو تزجية فراغ كانت أفضل لي من الانكباب على قراءة كتاب يصف الجنوب أو يبحث عن أحواله. ولهذا فلا عجب إذا ما ملك منظر الاسكندرية عليّ مشاعري، وأخرجني من طوري فوقفت أشهد مذهولة مسرورة ضجة الميناء وجلبته، وكأنني في حلم لذيذ اخشى أن ينتهي.

وحين مررنا في دائرة الجمارك طلبوا إلينا إبراز هوياتنا، ولكني قررت أن لا أكشف عن هويتي الحقيقية ما وسعني ذلك، فاستعرت من احدى رفيقات السفر هويتها، وأبرزتها للموظف المسؤول، فاكتفى بها وسط دهشتي واستغرابي.

وما إن خرجنا من دائرة الجمارك حتى أطبق علينا جمع من الناس غفير بحصار شديد يزهق الانفاس وكدنا أن نضيع وسط جلبتهم وضوضائهم، فقد أحاط بنا عشرات العشرات من الرجال والفتيان يتصايحون ويتنابذون ويتخاصمون ويتشاتمون فيما بينهم، وهم يعرضون علينا خدماتهم بالحاح يبلغ حد الإكراه.

ولم نستطع فك هذا الحصار المطبق وشق الطريق لأنفسنا إلا بمساعدة البوليس، كما استطعنا بمساعدته وبشق الأنفس الحصول على عربة تقلنا إلى الأوتيل.

ولم يخلُ سيرنا في العربية من مفاجئات وفكاهات. ففي كل دقيقة وأخرى، يقفز إلينا أحد الرجال عارضاً خدماته علينا دليلاً أو ترجماناً، ومنذراً بالويلات والمتاعب التي يلقاها من لا يتكلم العربية في البلاد، ولكني ما كنت أرد عليهم باللغة العربية حتى يولوا الأدبار مذهولين.

وقد نزلنا في الاسكندرية في أوتيل بالغ الوساخة، غالي الثمن، وأمضينا فيها يومين مرا كلمح البصر، قد كنت أقضي جلّ وقتي في الاحياء العربية حيث أتمتع بجوها الشرقي العبق وعواطف أهلها الودودة، والذين كانوا يتأملوني في شك وريبة أول الأمر ولكني ما إن أتكلم العربية معهم حتى تنطلق أسارير وجوههم بالبشر والفرح، فينطلقون معي في أحاديث ودية. وكانوا يعجبون من إتقاني اللغة العربية ويسألونني «كيف تعلمت لغتنا بهذه الدرجة من الاتقان؟ لا بد أنك كنت في بغداد مدة طويلة؟».

وكان الأسطى عبده، سائق العربة التي استأجرناها لفترة مكوثنا في الاسكندرية، رجلاً طيباً محبا للحديث وللمزاح والانبساط؛ وكان ميالاً إلينا حتى إنّه عرض علينا أن يأتي معنا إلى ألمانيا خادما، وقد أقسم بشرفه أن يبقى لي مخلصاً طيلة حياته، وأن لا يسرق قطرة واحدة من نبيذي. ولكن الرجل المسكين مُنِيَ بخيبة أمل كبيرة حين اعتذرت عن اصطحابه في نهاية اليومين.

إن الاسكندرية التي اشتُهرت على مر العصور بعظمتها وجمالها قد غدت الآن خرائب وأطلالا، بفضل «إنسانية» الانكليز وحبهم نشر الحضارة والمدنية في كل مكان!؟. ولذلك يندر أن تجد بين المصريين من يحب الانكليز، وما عدا خديوي مصر ووزراءه ـ وكلهم من صنائع الانكليز ـ فالباقون من أهل مصر يكرهون الانكليز، ويتناقلون عنهم في الشوارع والأسواق ألذع التعليقات وأشنع الشتائم. وقد سمعت بعضا منها بنفسي، وكنت أسأل دائماً عما إذا كنت انكليزية فلما أجيب بأني ألمانية أشعر بالحال بتحسن معاملتهم نحوي وارتفاعي في نظرهم، ولم يكن هذا رأي المصريين وحدهم في الانكليز، إذ ما كان رأي الجالية الأوروبية في الاسكندرية فيهم بأطيب من ذلك.

***

ومن الاسكندرية انتقلنا إلى بور سعيد في سفرة استغرقت ثمانية عشر ساعة، حيث انتقلنا فيها إلى السفينة «أدلر» التابعة للوحدة البحرية الالمانية في شرق أفريقيا.

ومع أن بور سعيد بلدة صغيرة، إلا أن المتاجر فيها كثيرة بحيث يجد المرء فيها كل ما يريد ويشتهي. وبور سعيد أيضاً هي بداية الصحراء الواسعة التي تخترقها قناة السويس التي تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر.

والقناة ضيقة جداً بحيث لا تتسع لمرور سفينتين في وقت واحد. ولهذا تقوم على مسافات متقاربة محطات لوقوف السفن الصاعدة ومثلها للسفن النازلة، حيث تقضي السفينة في كل محطة ساعة أو ساعات تنتظر مرور السفن الأخرى القادمة من الاتجاه الثاني.

ولا يستطيع السير في القناة إلا الربابنة التي يعرفون مسالكها ودروبها. لذلك يصعد إلى ظهر السفن في بور سعيد ربابنة انجليز يقودون السفن أثناء سيرها في القناة. وقد أكسبهم التمرين المستمر والخبرة الطويلة معرفة دقيقة بشؤون الملاحة في هذا الممر المائي الضيق: فهم يعرفون من الاشارات الطافية على سطح الماء ما اذا كان عليهم المرور أو الانتظار، وما هي مدة الانتظار، وكم عدد السفن العابرة في الاتجاه الثاني.

والسفن لا تمشي في القناة بكامل سرعتها خشية أن تؤدي قوة الأمواج وتلاطمها على الشاطئين إلى انهيار جوانبهما الرملية. كما ويقف السير في القناة كلية أثناء الليل لانعدام القدرة على قراءة الاشارات.

وتعرض القناة عند مدينة السويس حيث تكون نهايتها ومدخلها إلى البحر الأحمر الذي ما إن تلجه السفن حتى تعود فتنطلق بأقصى سرعتها.

ومع أن حرارة الجو في القناة كانت مرهقة جداً، الا أنها في البحر الأحمر أكثر من أن تطاق. فكنا نتصبب عرقاً ليل نهار، ولم تكن أنواء البحر لتسمح لنا بفتح نوافذ الغرف، فكنا نضطر إلى قضاء الليل على ظهر السفينة على كراسي قلقة غير مريحة. وما كان هذا بالأمر الكثير الازعاج لي، فأنا ابنة هذه الأجواء، وقد طال اشتياقي لها بعد أن نخر برد الشمال عظامي طيلة هذه السنين، ولكن الجو لم يرق لأولادي، وكان أكثر من أن يطيقوه، فأصيبوا بالتعب والارهاق.

***

واستمرت رحلتنا من بور سعيد إلى ميناء عدن سبعة أيام كاملة، وأقمنا في ميناء عدن خمسة أيام قبل السماح لنا بمواصلة السفر. وما إن فارقنا هذا الميناء الصخري حتى كنا في مهب الرياح الجنوبية الغربية التي يسمونها الرياح الموسمية، وفي نفس المنطقة التي أغرقت الأعاصير فيها قبل أسابيع الباخرة الحربية «أوكستا»، وهبت علينا ريح عاتية لعبت بالسفينة يمنةً ويسرةً، ثم صارت الريح إعصاراً قوياً مدمراً دام ثلاثة أيام بلياليها رأينا الموت فيها وجهاً لوجه من شدة الفزع والرهبة ومن شدة آلام الرأس والمعدة وارهاق البدن. فقد كانت سفينتنا خلال هذه الأيام الثلاثة كريشة في مهب الريح، فعلاً وعملاً لا وصفاً وقولاً، فكان الاعصار يرفعها إلى أعلى ثم يقذف بها إلى أسفل ثم إلى ذات اليمين أو ذات الشمال، ونحن فيها أشباه أموات لا حول لنا ولا قوة، تكاد أمعاؤنا أن تتقطع، وعقولنا أن تجن، وأرواحنا أن تزهق. لا نملك من أمرنا شيئاً إلا الاستسلام للقدر وانتظار مشيئة اللّه.

واستمر الرزء أياماً ثلاثاً كانت أطول من دهور. فلما طلع علينا اليوم الرابع خفت هذا الاعصار وإن ظلت الرياح تلاعب السفينة بين الحين والآخر فتطوح بها يميناً وشمالاً، ولكن الأمر على شدته لا يقاس بالهول الذي شهدناه.

* * *

والحمد للّه في كل حال على حسن الختام! ففي اليوم الثاني من شهر آب بدت للعيان ـ ويا للفرحة ـ سواحل جزيرة بمبا، وهي على بعد ثلاثين ميلاً من زنجبار، وتقطع الباخرة المسافة بينهما بثلاث ساعات. ولكن حلول الليل حظر دخول الميناء في الظلام لوجود العوارض الرملية اضطر سفينتنا لأن تقضي ليلتها في «نورث كامب» شمالي زنجبار.

ولم يغمض لي جفن طول الليل أو يستقر لي جنب: فقد فاضت الذكريات، وجاشت العواطف، وازدحمت النفس بشتى الخواطر والانفعالات. واستيقظ أولادي في اليوم التالي مبكرين وحين خرجنا إلى سطح السفينة كانت السفينة تزحف رويداً رويداً نحو الميناء، وكانت أسداف الظلمة تنزاح أمام أنوار الفجر، فتتكشف للعيان أشجار النخيل في الأفق البعيد وكأنها تتلع نحونا بأجيادها لترنو إلينا أو لتحيينا من بعيد، وكلما زدنا اقتراباً من الشاطئ ظهرت البساتين الكثة الأشجار، وتحتها قرى الزنوج مبعثرة هنا وهناك.

وقد سلب لبي هذا المنظر الرائع: منظر البحر والفجر وأرض الوطن العزيز. وكان أرق الليل وفيض العاطفة وجيشان الفكر واضطرام الفؤاد قد جعلت مني روحاً رقيقاً شفافاً فرحت أتأمل المنظر حتى غبت عن الوجود في تأملات وذكريات، فانهالت أمام ناظري صور طفولتي وشبابي في هذه الأوطان، ثم ما جرى لي بعد ذلك من غرائب الأحداث وصروف الزمان؛ فعجبت لتفاهة الانسان في هذا الكون، ولغرابة الصدف في هذه الحياة. فالمرء في هذه الحياة لا يملك من أمر نفسه شيئاً، ولا يعرف ما يضمر له الغد من غير وأحداث.

فهنا ولدت ونشأت عربية مسلمة وفي أعز دار، ثم حكمت الظروف عليّ بالهجرة إلى بلاد لم أكن قد سمعت بها أو رأيتها من قبل، وها أنا أعود إلى بلادي نصف مسيحية ونصف ألمانية ومن غرائب الصدف أن تكون عودتي إلى وطني بعد هذا الاغتراب الطويل في نفس الشهر الذي غادرته فيه قبل تسعة عشرة عاماً، ولعل الأغرب أن يتفق هذا اليوم يوم وصولي زنجبار مع نفس اليوم بل ونفس الساعة التي توفي فيها زوجي قبل خمسة عشر عاماً.

وقد شهد أولادي ذهولي وانشغال بالي فظلوا ينظرون إليّ بصمت وتقدير، ولم يقطعوا عليّ حبل أفكاري. ولكن عيونهم الذكية اللماعة كانت تفيض حباً وحناناً. وانني لأحمد اللّه تعالى أن وهبني هؤلاءالأولاد سلوى وقرة عين بعد أن سلبتني الحياة أعز ما أملك.

* * *

وكان الميناء يبدو من بعيد وكأنه غابة من الصواري والأشرعة. فقد سبقتنا إلى الوصول أربع قطع من الأسطول الألماني الشرقي والذي تشكل باخرتنا أدلر قطعة منه، ثم هناك باخرتان كبيرتان تابعتان للأسطول البريطاني وخمس سفن من سفن السلطان، وعدد لا يحصى من المراكب الشراعية الصغيرة والكبيرة.

ولم يشأ الكومودور «باسجن» ربان باخرتنا أن يسمح لي بالنزول إلى المدينة وإنما أراد أن يعتبرني ـ على حد قوله ـ «حمولة سرية»، وهي تسمية أثارت التنكيت والاستهزاء. لكن وصول الأميرال «كنور» على ظهر الباخرة الحربية «بسمارك» أصلح الأمور، وأعاد لي حريتي في النزول إلى المدينة وقت ما أشاء.

وقد نزلت إلى المدينة وتجولت في أنحائها. وكان مجرد وجودي ثانية على أرض بلدي وتجوالي في شوارعه مبعثاً لشتى الانفعالات والاحاسيس.

لكن أقوى هذه الأحاسيس اثارة كان شعوري بالغرابة والدهشة لقدرتي على السير في شوارع المدينة في وضح النهار وبرفقة جمع من الرجال، وأنا التي اعتدت ألا أخرج إلى هذه الشوارع إلا محجبة الوجه ملفوفة الجسم تحت جنح الظلام وبين صفوف من الحراس العبيد. وكنت أظن أن حياتي تسعة عشر عاماً في أوربا قد أنستني هذا الماضي وعودتني على الحياة الجديدة، لكن تجوالي في شوارع زنجبار أشعرني من جديد بتحرري بشكل لم أكن أشعر به من قبل حتى في خلال زيارتين سابقتين قمت بهما إلى مصر.

ومنذ جولتي الأولى شوارع المدينة بدأ الناس يتجمهرون حولي، ويحيطون بي من كل جهة، ويرافقونني إلى كل مكان. وكنت ألمح في عيونهم وعلى وجوههم علائم حنان عميق ولهفة مكبوتة ودهشة واضحة. ولم يستطع بعضهم كتم عواطفهم، فكانوا يسلمون عليّ بالعربية أو السواحلية، ويسألونني عن صحتي، ويؤدون لي مظاهر الاحترام والتقدير. وبمرور الأيام بدا هذا الجمع المرافق لنا ـ باختياره ـ يزداد عدده ويطغى حماسه وعمق وداده، ولم يكن هذا في طبيعة الحال مما يرضي السلطان ومستشاره السياسي القنصل البريطاني العام.

وقد عمد السلطان إلى إيقاع أقصى العقاب كالحبس والجلد ببعض المساكين الأبرياء ممن كانوا يرافقون مسيرتنا. ولم يكتف بذلك بل اشتكى هو والقنصل البريطاني العام لدى قائد الوحدة البحرية الالمانية من التظاهرات التي ترافق جولاتي في المدينة.

وعند سماعي هذه الأخبار، واشفاقاً مني على هؤلاء الأبرياء الطيبين فقد حذرتهم من مرافقتي، ورجوت إليهم الامتناع عنها، إلا أنهم أجابوا أن ما من عقاب يستطيع أن يصدهم عن إظهار شعورهم بالولاء والوفاء نحوي.

وكان العبيد يحملون إليّ أخبار أخوتي وأخواتي وأقاربي وأصدقائي، وينقلون إليّ تحياتهم واستمرار ودهم واخلاصهم وأن دورهم مفتوحة أمامي وأنهم يرغبون في زيارتي على ظهر الباخرة. وكان بعض هؤلاء العبيد يحملون إليّ معهم رسائل مكتوبة من بعض أخواتي، وكانوا يخفون الرسائل تحت عمائمهم ثم يدسونها في يدي على حين غفلة من العيون. وكانت رسائل أخواتي تفيض شوقاً ولوعة وحنيناً، يطلبن إليّ أن أزورهن في بيوتهن.

ولكنني كنت أرفض الاستجابة لهذه النداءات أو تلك، لا عن جفاء بل نزولاً عند حكم الظروف السائدة وابعاداً للطرفين عن المشاكل والمتاعب.

وفي أثناء تجوالي في المدينة، كنت ألمح السيدات يتجمعن خلف أبواب دورهن ليلقين إليّ بالتحية أو بكلمات الاعجاب والتشجيع.

وكنا اذا مررنا بالزوارق أمام القصر، أو سرنا تحت نوافذ غرف الحريم السلطاني، نشاهد نساء السلطان يلوّحن لنا بأيديهن بالتحية والسلام. وكنت أرجو من معي من ضباط وبحارة أن يتجاهلوا هذه الاشارات وألا يردوا التحية بمثلها، وكنت بدوري أتجنب النظر صوب القصور، وذلك من أجل سلامة هاته النسوة الطيبات وإنقاذهن من عقاب مميت. فقد كان يلذّ لسيدهن السلطان أن يخفي نفسه في مكان ما في القصر يستطيع منه أن يراقب النسوة المتفرجات على البحر أو الشارع، فاذا بدرت من إحداهن إشارة بريئة أو تحية مجاملة عابرة، فالويل كل الويل لهذه المسكينة من عقاب سيدها السلطان!

وليس في هذا الكلام تلفيق أو اختلاق، بل هو حقيقة واقعة يعرفها الجميع، بل ويعرفها الأوربيون الساكنون في زنجبار حق المعرفة.

ومن الحكايات المشهورة في هذا الصدد القصة التي وقعت أحداثها في السنة السابقة على وصولي إلى زنجبار: فقد لمح السلطان وهو في مرصده السري احدى محظياته الشركسيات، وكانت على جانب كبير من الملاحة والجمال ـ تلوح بالتحية إلى بحار برتغالي كان يمر بزورقه أمام القصر.

ولم يكن في عمل هذه السيدة ما يستوجب الشك والمؤاخذة فالعقاب. اذ أذكر أننا كنا ـ أيام طفولتي قبل ثلاثين عاماً ـ نتقبل سلام الضباط والبحارة الانكليز والفرنسيين ونرد عليهم تحيتهم بالشكر، ولم تثر تصرفاتنا هذه اعتراض أحد من سادتنا.

لكن للسيد برغش رأياً آخر في الموضوع: فقد ذهب إلى حسنائه الشركسية، وبدأ يجلدها بالسوط عن ذنب لا وجود له وبقسوة متناهية لم تحتملها، فأسلمت الروح بعد أيام قلائل. وقد قيل إنه ندم على فعلته بعد أن رأى شناعة نتيجتها وبشاعة جريمته، فأقبل على ضحيته يطلب منها الصفح والغفران فأبتهما عليه حتى أسلمت الروح، وتكفيراً عن ذنبه فإنه ما زال يقيم على قبرها تلاوة القرآن يومياً.

ورغم اشتهار السلطان بالقسوة وشدة العقاب، فإن ذلك لم يمنع الناس من استمرار توددهم إليّ وإظهار شعورهم نحوي، ولعل مما كان يغيظ السلطان ان يسمع الجماهير تهتف لي «كواهيري بيبي... كواهيري بيبي» اي مع السلامة سيدتي، يهتفون بها تحت نوافذ غرف قصره كلما ركبنا

زوارقنا عائدين إلى السفينة.
ومن الطبيعي أن ينطلق في إثرنا الجواسيس والمخبرون، وكان جُلّ هؤلاء من الهندوس الذين لا يستطيعون أن يفهموا عنا شيئاً لأننا نتكلم الالمانية التي لا يفهمون منها حرفاً. وفي الليلة السابقة على يوم رحيلي تسلل الى السفينة تحت جنح الظلام اثنان من أصدقائي لتوديعي، وجلبا انتباهي إلى رجل ضئيل الحجم كان يتردد كثيراً على باخرتنا كبائع متجول،، وأخبراني أنه جاسوس «بيرادوجي» الذي أصبح الآن رجل القصر الأول، في حين كان في أول أمره حلاقاً ومنظفاً للمصابيح في القصر.
وبيرادوجي هذا هندوسي خبيث الطبع وضيع الأصل وضع نفسه تحت تصرف السلطان خادماً وضيعاً حتى غدا رجل السلطان الأول الذي ينهض عنه بالأمور جميعها صغيرةً وكبيرةً: من المفاوضات الدبلوماسية إلى الخدمة على مائدة الطعام. ويتقاضى بيرادوجي راتباً قدره ثلاثون دولاراً في الشهر فقط وهو باعتراف الجميع مبلغ ضئيل لا يكفي نفقات عيشه البذخ ولباسه النفيس، ومن الطبيعي بعد هذا أن يتلفت هذا الهندوسي يمنة وشمالاً للبحث عن موارد جديدة بالحرام. وكان يستغل لهذا الغرض نفوذه الواسع عند السلطان ليوقع أشد الأذى بمن يتأخر عن تلبية مطاليبه. فمن ذلك مثلاً أن مجهز القصر بالجواهر رفض أن يدفع إلى موظف المصابيح هذا عمولة على مشتريات السلطان، فأقنع بيرادوجي السلطان بالتحول عن هذا الجوهري إلى آخر أكثر استجابة لمطالب بيرا من الأول.

* * *

ومن غرائب الصدف أن يقع عيد ميلادي في هذه الأيام، وأن أحتفل به على ظهر سفينتنا، وهذه أول مرة احتفل فيها بعيد ميلادي في زنجبار إذ ليس من عادة بني قومي الاحتفال في هذه المناسبات.

* * *

وتبدو مدينة زنجبار من البحر أكثر جمالاً مما كانت عليه من قبل. فقد بنيت فيها عدة بيوت جديدة. ومما زاد من جمال منظرها الفنار القائم أمام القصر والمضاء بالكهرباء والذي يصفه ضباط بحارته بانه «شجرة عيد الميلاد السلطانية» لكثرة مصابيحه.
ولكن يتراءى لي ـ ولعل هذا من أثر اقامتي الطويلة في أوروبا ـ ان داخل المدينة قد ساء أمره وأصبح في حالةٍ يرثى لها من الخراب والإهمال: فالخرائب تنتشر في شوارع المدينة الضيقة والوسخة، وقد نما عليها العشب والحشيش بل ونبتت بها بعض الشجيرات ايضاً. ولا تجد من يلتفت إلى هذه الحال أو يكترث بها بل يمرّ الناس بها غير مبالين. ويبدو أن إنشاء مجلس بلدي ليس بالأمر اليسير، وإلا لاستطاع السلطان أن يعالج الأحوال خاصة نهأ شاهد نظافة المدن وشوارعها في بمباي ولندن وباريس. على أنه أدخل إلى البلاد معملاً لصنع الثلج ومحطة للكهرباء والقطار وأشياء أخرى ليس أقلها الطباخون الفرنسيون ولا الأطباق الفرنسية.
ولقد صدمني سوء حال المدينة وخرابها، وآلمني أشد الألم؛ ولم أكن أدري أن صدمتي ستكون أشد وألمي أكثر حين أرى قصري الحبيب بيت الموتني، ولكنني حين زرت مسقط رأسي وملعب طفولتي، ورأيت ما حل به من خراب تقطعت نياط قلبي، وأحسست بغصة الفجيعة والفقدان.
فقد تحول البيت المنيف إلى ركام وأطلال: إذ زال أحد السلالم من مكانه نهائياً، وأوشك الآخر على الانهيار. والجدران قد انهد بعضها وبعضها الأخر مائل للانهدام؛ أما باحة الاستحمام فقد طارت عن الحمامات سقوفها، وانهارت جدرانها، وامتلأت ساحاتها بالنفايات والأوساخ، ونبتت فيها الحشائش. ولم يبق ما يذكر المشاهد بعظمة القصر السابقة ومجده الغابر، ولم أجد لي منقذاً من الحزن والذهول الذين أطبقا عليّ إلا بمغادرة المكان.
وعند مغادرتنا القصر تقدم منا شاب عربي وسيم الخلقة حسن المظهر، وقدم إلينا نفسه على أنه رئيس الحرس. وقد اصطحبنا إلى زوارقنا. وعند مرورنا على نهر الموتني وجدت رجلاً أعمى يتوضأ من ماء النهر. ولم يكن من عادتي منذ أن وصلت إلى زنجبار أن أبدأ الناس بالسلام أو الكلام، ولكني رأيت أن أكسر القاعدة مع هذا الرجل الأعمى، فسلمت عليه دون أن أقترب منه كثيرا لئلا أقطع عليه وضوءه أو أفسده بصفة كوني مسيحية، ولكنه ما إن سمع صوتي حتى مد إليّ يديه، وأخذ يدي ورفعها إلى شفتيه وقبلهما، ثم وضعهما على وجهه بكل حرارة وشوق. ومع تأثري البالغ بهذه العواطف فقد خشيت أن يكون الرجل قد أخطأ في معرفتي، فسألته ان كان يدري من أنا فأجاب، «أنت سيدتي سالمة، التي طالما حملتك وأنت طفلة بيدي هاتين!» واستمر هذا الرجل الأعمى الطيب يحييني بكلمات ودية رقيقة.
وقد أخبرني الضابط المرافق ان الرجل هو المؤذن في مسجد بيت الموتني، وقد عينه السلطان مؤخراً لقراءة القرآن على قبر علي بن سعود الذي أذاقه السلطان شر العذاب في حياته.
وقد أثار كلام الضابط شجوني، وذكرني بما كنت أعرفه من قسوة برغش ولؤمه تجاه علي بن سعود وخالته أختنا الكبرى رجه.
فقد كان علي ـ كما يذكر القراء ـ ابن أكبر أخوتنا زينة، وكانت رجة الأخت الشقيقة لأمه، وقد نزحت إلينا من مسقط منذ زمن طويل، فأقطعها السلطان بيتاً، وأجرى عليها راتباً.
وكان علي ـ الذي صب عليه برغش جام حقده وبغضه دون ما سبب ـ قد سقط طريح الفراش في بيت الموتني في مرضه العضال الذي أودى به، ولم يكن له زوج أو بنت لتعنى به، فكان من الطبيعي لرجه أن تعنى بابن أختها، وتسهر على راحته في فراش مرضه.
لكن برغش الذي لا يعرف قلبه الرحمة ولا الشفقة، ولا يفهم لعواطف الود والحنان معنى، والذي أعماه حقده الأسود ونفسه المريض، أغاظه تصرف أخته تجاه علي، ولكي يظهر نقمته وسطوته لأكبر أخواته والتي ربما تكبر أمه عمراً، فقد قطع عنها راتبها، وجردها في أخريات عمرها من دارها.
ولما توفي علي لم يظهر برغش في تشييع جنازته، وهو أمر لا يقدم عليه المرء حتى مع أشد خصومه عداوة... ولكنه الآن يأمر بقراءة القرآن وإقامة الصلاة على قبر علي... فيا للمكر والخداع!
وما دمت قد تطرقت إلى الكلام عن رأس عائلتنا في زنجبار أخي السيد برغش، فأجد لزاماً عليّ أن أزيح الستار عن بعض أعماله الأخرى، وانه لَيسوءني ـ والحق ـ أن أندد علناً بفرد من عائلتي هو أخي وهو الآن رأس العائلة وسلطان البلاد، فرغم سنين الفرقة والبعاد عن أهلي وبلادي، ورغم قسوة برغش تجاهي وحقده ضدي ومعاملته غير الانسانية لي، أنا التي ضحيت يوماً ما بمالي وحياتي في سبيل إنجاح قضيته وتنصيبه سلطاناً، على الرغم من كل هذا فأنا ما أزال أحمل بين جنبي قلباً يضطرم بالحنان والوفاء لأهلي وبني قومي ويحترم ذكراهم، ويمنعني من التنديد بهم لو لم يكن المقصود هو برغش نفسه الذي لا يحمل أيّ عاطفة لأي من أهله وبني قرباه.
فمن قصصه الشائعة في زنجبار ما فعله بأخينا خليفة، وهو أكبر الموجودين في زنجبار من أبناء أبينا بعد برغش، والمرشح الطبيعي بعده للسلطنة، لذلك فما إن تولى برغش عرش البلاد عام ١٨٧٠ حتى رمى بأخيه هذا إلى غياهب السجن دونما سبب أو مبرر إلا أن يكون خوفه من أن يعمد خليفة ـ وهو خليفته وولي عهده ـ إلى استعجال الأمور، فيتآمر ضده كما أراد هو أن يستعجل الأمور فتآمر ضد أخيه ماجد.
وظل الأخ المسكين يرسف بالقيود والاغلال ثلاث سنوات طوال دون أن يعرف السبب، ودون أن يتحرك خلالها قلب أخيه بالرحمة والاشفاق.
ثم اضطر إلى إخلاء سبيله اضطرارا، فقد انتوت احدى اخواتنا التي ذاقت نفسها الكثير من جور برغش وقسوته ـ الذهاب إلى أداء فريضة الحج في مكة، فتيقظ ضمير السلطان فجأة، فجاءها مستعطفاً منها الصفح والغفران لتذكره بالخير في بيت اللّه وأمام قبر الرسول، إلا أنها أبت أن تغفر له أثامه معها لم يطلق سراح أخيهما خليفة.
وقد أطلق سراحه فعلاً؛ ولكنه ظل يراقبه ورفاقه ويرصد حركاتهم. وسرعان ما اكتشف أن لأخيه صديقاً مخلصاً وثرياً في نفس الوقت ـ ولا شك أن الذاكرة عادت بالسيد برغش إلى أيام مؤامرته على أخيه ماجد وما عادت عليه روابطه بالرؤساء الأغنياء من نفع وغنائم، لذلك قرر أن يحرم خليفته على العرش من مثل هذا الولاء المدعوم بالمال. لهذا فقد أرسل إلى صديق أخيه وقال له:
«انني سمعت أنك تنوي بيع مزارعك لذلك خبرني عن الثمن الذي تريده فانني أريد شراءها».
ولكن الرجل أجابه: «لا بد أن هناك خطأ ما يا سيدي! فأنا لم أفكر مطلقاً في بيع أملاكي: ولكن السلطان رد عليه «ان من مصلحتك أن تبيعني أراضيك وأرجو أن تفكر في الأمر ملياً».
وبعد أيام قلائل دعي الرجل ثانية إلى حضرة السلطان الذي بادره بالسؤال عن الثمن الذي يريده لأملاكه، وأعاد الرجل تأكيده بأنه لا يفكر في مثل هذا البيع مطلقا، ولكن جاءه الرد الحاسم من السلطان: «ليس لنواياك أية أهمية في تقرير الأمر. بل إني أدفع لك عنها ٥٠ ألف دولار وهاك أمراً لاستلام المبلغ».
وبقلب كسير ملؤه الحسرة والألم سلم الرجل السيّئ الحظ أمره للّه وخرج من القصر ليجد بانتظاره مفاجأة أخرى أشد وأعظم، ذلك أنه لما ذهب لصرف أمر السلطان واستلام الثمن، أخبره الموظف المسؤول أن المبلغ سوف يدفع له بعشرين قسطاً سنوياً، وان ما يستحقه الآن هو القسط الأول فقط وقدره ألفان وخمسماية دولار. فانهار الرجل وتحطم، وهو بالضبط ما كان يهدف إليه السلطان.
وهناك حادثة أخرى يحمر وجهي خجلاً وتمتلئ نفسي حسرة وألماً وأنا أرويها، تلك هي قصة احدى اخواتي التي تقدم لخطبتها أحد الرجال المعروفين، فرفض السيد برغش تزويجها له، ثم

سرت اشاعة مغرضة كاذبة عن علاقة حب بين أختي وهذا الرجل، فذهب السلطان إلى أخته وواجهها بالتهمة، فحاولت عبثاً أن تثبت له جهلها التام بالموضوع وبراءتها المطلقة من كل ما يقال حولها. ولكن هذا الأخ الرقيق القلب الحريص على واجبات الأخوة والقائم على واجبات الأمانة انهال بيده الكريمة على أخته البريئة بخمسين سوطاً تركتها ركاماً محطم الجسم والنفس، وما زالت منذ سنين طريحة الفراش تقاسي بصمت آلامها المبرحة في ظاهر جسمها وفي مكنون نفسها، ولعلها حين تموت أن يأمر الأخ الكريم فيقيم على قبرها الصلاة وتلاوة القرآن كما فعل مع زوجته الشركسية أو ابن اخته علي بن سعود.

وبعدما تقدم فلعل القارئ حين يقرأ أو يسمع ما يغدقه الأوروبيون من المديح عن سلوك هذا السلطان ورقة طبعه وطيبة خلقه، يتذكر هذه القصص ليحكم بنفسه على حقيقة هذا الرجل وحقيقة ما ينثره الأوربيون حوله من ثناء ومديح، وهو لا يكره أحداً أو شيئاً ـ على كثرة ما يكره ومن يكره ـ مثل كرهه لكل من هو أوروبي يستوي في ذلك الانكليز والألمان وبقية الأمم كلها.

***

ومن المفهوم بعدما تقدم أن لا أتوقع خيراً أو إنصافاً من أخي السلطان بخصوص طلباتي الخاصة. ولا عجب أن أرجع من زنجبار خالية الوفاض، لم أتسلم شيئاً من حقوقي المشروعة فيها. ولا صحة أبداً بطبيعة الحال لما نشرته الصحف من قصص خيالية موضوعة عن الثروات الخيالية التي عدت بها إلى ألمانيا نتيجة استلامي أثمان كافة أملاكي التي ورثتها عن أبي ومن بينها ثمن ثمانٍ وعشرين داراً. فالحقيقة أني لم أستلم فلساً واحداً قط. فان طلباتي التي اعترف بأحقيتها القنصل البريطاني نفسه ـ وانه لأمر لو تعلمون عظيم ـ ما زالت معلقة لم يُبَتّ فيها حتى اليوم.

ان المبلغ «العظيم» الذي عرضه عليّ أخي «الشهم الجواد» كتسوية نهائية لكل حقوقي، هو ستة آلاف روبية وقد رفضته رفضاً نهائياً مع الشكر وبكل إباء فهو لا يساوي عشر معشار ما أطالب به شرعاً وقانوناً. فمنذ أن تولى برغش عرش السلطنة توفي خمسة من أخوتي وخمس من أخواتي وعمتي عائشة وثلاث من بنات الأخوة وأحد أبناء أخوتي، وإحدى زوجات أبي الثريات. وخلف جميع هؤلاء أموالاً طائلة، وأنا أرث شرعاً في تركاتهم جميعاً.

ولقد تذرع السلطان بحجج باطلة واهية لرفض التسوية التي اقترحتها عليه الحكومة الألمانية. ولعل سروره قد بلغ حده الآن حين طغت على مصلحتها في قضيتي مصالحها السياسية في المنطقة.

ولا بد لي هنا أن أروي قصة أخرى عن الدبلوماسية الانكليزية تدل على حصافتها «المؤسفة». فمن المعروف لكل فرد في زنجبار أن سلطة السلطان قاصرة على توافه الأشياء، أما القول الفصل في الأمور الهامة فهو بيد القنصل البريطاني العام الذي يعترف له الجميع ـ بما فيهم أعداؤه ـ بأنه دبلوماسي حصيف من الطراز الأول. وقد وعد هذا الرجل أن يطلب موعداً لمقابلة السلطان ليعرض عليه قضيتي التي اعتقد بمشروعيتها. والظاهر أنني ما أزال غرة جاهلة بالأساليب واللغة الدبلوماسية كما كنت قبل عشر سنين، لذلك فقد صدقت ما قاله القنصل البريطاني لأحد ضباط الأسطول الألماني عن أسفه لعدم استطاعته أن يعمل شيئاً في قضيتي لأنه لم يجد لسوء الحظ أي فرصة لمقابلة السلطان وبحث قضيتي معه.

ولكن سرعان ما انكشف لي جهلي وطيبة قلبي حين علمت أن القنصل المذكور قد قضى الأسبوعين السابقين على هذا الحديث مع السلطان في أحد مزارعه. عدا عما يتحدث به الناس عن وجود خط تلفون مباشر يربط قصر صاحب العظمة السلطان بقنصلية صاحبة الجلالة البريطانية.

***

ولم يترك السلطان وسيلة إلا واستعملها ضدي: فقد طلب إليّ رفاق سفري أن أساعدهم في شراء بعض الحلي لزوجاتهم، فترددت واياهم على دكان أحد الصاغة، فلما وصل خبر ذلك للسلطان عن طريق رجله الأول بيرادوجي، أرسل في طلب الصائغ، وصب عليه جام حقده وغضبه لأن الصائغ رضي أن يستقبلني في دكانه ويبيعني بعض الأشياء. إلا أن الصائغ أجاب ببراءة بأنه لا يستطيع أن يطرد من دكانه أخت السلطان، مما أثار المزيد من غضب السلطان، فهدده بغلق متجره وإخراجه خارج البلاد فما كان من الصائغ الجريء إلا أن رد عليه أنه يفضل غلق المحل وترك البلاد على أن يعرضني لأيّ إهانة.

ونزل السلطان إلى مستوى أقل من هذا بكثير: فقد أمر بسجن عبيدي الذين جاءوني مسلّمين عندما علموا بوصولي زنجبار.

إلا أن إجراءاته وتصرفاته كانت مثار النقمة والاستهزاء ضده، ولم يحاول الناس إخفاء شعورهم العدائيّ نحوه إذ كانوا يغنون إذا ما شاهدوني:



«بيجا كانا كاسي جاواتوتو بيبي» أي «لا تعتبي عليه يا سيدتي فانه يتصرف كالأطفال».

ولم أكن حين وصلت زنجبار في شك من طبيعة الاستقبال الذي سألقاه من أخي السلطان؛ ولكنني كنت واثقة أيضاً أن أخي لا يستطيع أن يهمل تنفيذ الرغبات الواضحة للحكومة الألمانية. ولم أكن مخطئة في تقديري: فهو على الأقل قد احتمل وجودي في زنجبار احتراماً لهم، ولا يمكن أن أتوقع منه أكثر من ذلك بعد الذي سمعته ورأيته من سوء معاملته لأخوتي وأخواتي الموجودين معه في زنجبار.

أما بقية الناس فقد تلقوا خبر وصولي بالترحاب، وأحاطوني مدة بقائي بكل عواطف الأخوة والوداد، وهذا ما سأبقى أذكره لهم بكل اعتزاز وامتنان؛ فالعرب والهندوس والبانيان وكل أبناء البلاد اشتركوا سوية في الرجاء إليّ أن أبقى وأولادي في زنجبار نقضي فيها بقية حياتنا.

وقد تعمدت مرة في حديثي مع اثنين من أقاربي أن أتجاهل رابطة القربى بيننا، ولكنهما ذكراني بها، وعتبا علي لجهلي أو تجاهلي بها. فبيّنت لهم أن تجاهلي للأمر كان متعمداً لأن أكثر أقاربي ليسوا على وئام معي. فأجابا بلسان واحد بأنهما لا يضمران لي إلا الاحترام والتقدير، فعلى الرغم من كل ما حدث فإنني ما أزال ابنة السيد سعيد. أما عن تغيير الدين فقد قالا إنه أمر مكتوب عليّ منذ البداية، وكذلك فإن هروبي من زنجبار وعودتي إليها كلها أمور مقسومة بارادة الله. ثم سألاني أن أبقى وأولادي في زنجبار.

وفي هذا الحديث الدلالة كل الدلالة على انتفاء التحيز الديني عند هؤلاء القوم.

ان مظاهر الوداد والوفاء التي احاطت بي من جميع الأهل والأصدقاء وأبناء البلد مع النعمة الوافرة باكتحال عيني برؤية وطني العزيز مرة ثانية قد جعلت رحلتي هذه حدثاً سعيداً سأبقى أذكره بالسعادة والغبطة والحبور على مدى الأيام، وليس لي إلا أن أكرر الشكر والحمد لله تعالى على كبير نعمته وواسع رحمته.

ولكن ساعة العودة والرحيل قد أتت؛ وكانت ساعة أليمة مليئة بالغصة والألم بالنسبة لي وبالنسبة لأصدقائي القلائل الذي ألمهم الوداع كما آلمني، وبرح بهم البين كما برح بي. وأرى ان خير ما اختتم به هذا الفصل وهذا الكتاب كله هو نشر بعض رسائل وداعهم شعراً ونثراً بلغتنا العربية الجميلة أو في اللغة السواحلية:

«أيها النازحون عنا في سفينتكم عودوا إلينا فمكانكم مهجة القلب ومقلة العين.

لو كنت أعلم قبل البين عزمكم، على النوى، لسار فؤادي خلفكم تبعاً، وصارت عيوني للحبيب هدية، وصارت روحي له الفداء.

أيها الراحلون عنا قد سلبتم منا الروح ومزقتم الجسد ولم تبق لي إلا الدموع تجري كأمواج البحر.

أيها السفين النازح رويدا تمنيت أن أكون طيراً فأطير حواليك، ولكن كيف يطير الطير وقد هاض منه الجناح؟

إلهي يا رب العالمين اجمعنا ثانية قبل الممات أو دع أرواحنا تلتقي في جنات سماتك!»

***